AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01032 2414

Library of
The American University
at Cairo

Presented by

Author

ID: 05b46
5-1

هدية الدكتور كيرلس مرقص خليل
لمكتبة الجامعة
١٩٥٤/٤/٢٨

مازن الحسيني

الشياطين وقصص أخرى

PG
3219
A7
H97

- دستويفسكى
- تشيخوف
- سيمنوف
- جوركى
- تزنسكى
- كوبرين
- شبانوف

عيون القصص العالمى

-١-

دار الثناء للطباعة
ابراهيم محمد عيسى
شارع الجيش ت : ٤٣٨٩٢

OCLC
10842452 98
892.73
H963

B13208524
15055474

١٩١,٧
ح م٠ش

31620

دار النشر المصرية

إهداء

أمـــاه . . .

أتذكرين أريحا وحرها ؟ أتذكرين أيام التعاسة والبؤس ؟ . . .

لقد ناضلت كثيرا . . فكافحت الجوع والحرمان . . ومع ذلك لم تكل عزيمتك ... ولم تهن إرادتك . . وانتصرت ...

فربيت أطفالك . . بالعرق والدموع والدماء . . وفى كل حين كنا نسألك : متى سنصل إلى الحياة التى نريدها ؟ ... كنت تجيبين : غداً ... غداً ...

فربيت فينا الأمل ... والايمان بالفجر ... بالمستقبل ... فإليك أقدم هذا الكتاب ...

إنه بعض من تجارب البشر !

مازنه الحسينى

دراسات فى الأدب الروسى

أرى لزاما على وأنا أحاول تتبع تطور القصة الروسية أن أتتبع تاريخ تطور الأدب الروسى ، لأن القصة طريقة من طرق التعبير الفنى وفرع من فروع الأدب .

ولكننا لا نستطيع تعقب تاريخ الأدب الروسى من غير أن نتعرض لأحداث التاريخ التى مرت بها روسيا وتحليل هـــذه الأحداث وفهم ما تنطوى عليه من إمكانيات تطور أو جمود للأدب .

فالأدب فى مفهومه العلمى الواقعى الصحيح ماهو إلا تعبير اجتماعى ، بل هو التعبير الدقيق الواعى الذى يسجل مدى ما تطورت اليه هذه الحياة فى طريق الوعى والتقدم والنهوض السياسى والفكرى والاجتماعى والثقافى ، أو فى طريق الجمـــود والرجعية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية . . . ولكنه ليس مجرد تسجيل أو تعبير . ولا هو مجرد تصوير أو تأريخ ، بل هو انعكاس لأحداث هذا التاريخ ، انعكاس واع لا يتوخى مجرد تصوير الواقع ، بل تصوير ما يجب أن يكون عليه هذا الواقع فى الصورة الأرقى ، أو فى صورته المثلى . وهو انعكاس للصراع المستمر بين قوى المجتمع المتضادة ، بين قوة نامية متطورة ، وأخرى جامدة فى طريق الزوال .

وبما أننا قد وصلنا إلى هذا التعريف الواعى والمفهوم الصحيح للأدب ، فيجب علينا أن نحاول تطبيقه على تطور الأدب فى روسيا ، وتحليله فى هذه الحدود لا غير ، حدود النظرة العلمية للتاريخ ، وفهم التاريخ

على أنه ليس مجرد تراكم عرضى للأحداث ، أو بطولات فردية ، أو معبداً من معابد عبادة الأبطال ، بل هو عبارة عن تاريخ الجماعات والشعوب التى تكافح فى سبيل حياة أفضل وفى سبيل الوصول إلى أرقى نتاج فى العقل البشرى .

وستسترعى انتباهنا ، ونحن بصدد تتبع تطور هذا الأدب ، حقيقة قررها نقاد الأدب فى الشرق والغرب ، واعترف بها أئمة الثقافة العالمية ألا وهى : تمخض الحضارة الإنسانية التى توصل اليها الإنسان خلال ستين قرنا من الزمن ، عن أربعة آداب عالميـــة : الأدب الأغريقى ، والانجليزى ، والفرنسى ، والروسى . والمقارن لهذه الآداب لن يتردد فى القول بأن الأدب الروسى هو أعظم هذه الآداب قاطبة ، أو على الأقل فى رأى كاتب هذه المقدمة ، أعظمها فى تعدد حقول دراساته وتحاليله ، أعظمها فى عمقه ووعيه وبساطته ، أعظمها فى تصويره الدقيق لمتناقضات مجتمعه ونفسية الشعب الروسى وآلامه وآماله .

والأدب الروسى من أحدث الآداب العالميه . فتاريخه لايتعدى قرنين مضيا من الزمن . هذا إذا أردنا أن نقصر تعريفنا للأدب على التعابير الفنية من أقاصيص وقصائد ومسرحيات . أما إذا أردنا أن نعمم كلمة أدب ونجعل تحت لوائها « مطبوعات » الحكومة ورسائل الكنيسة ، فيجدر بنا أن نرجع بتاريخه إلى القرن العاشر بعد الميلاد :

لم يكن الأدب الروسى فى ذلك الوقت أدبا بكل ماللكلمة من معنى ، بل كان عبارة عن رسائل هزيلة وصـــلوات عقيمة تصدرها الكنيسة المهيمنة على جميع مرافق الحياة ، والتى كانت تحارب كل محاولة لأشعال أى بصيص من النور خوفا على أكداس الظلام المتراكم والتى تستمد منه

سلطتها . فانتشر الجهل واقتصرت الثقافة على رجال الكنيسة وحدهم الذين كانوا يستغلون جهل الشعب فيعيشون فى وفرة من العيش ، بينما الملايين من أبناء روسيا كانت تتضور جوعا . وأصدق ما يوصف به حال الكنيسة والشعب هو قول الشاعر الجاهلى الأعشى فى وصف ارستقراطي مكة وصعاليكها :

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

واستمرت هذه الحال إلى أواخر القرن الثامن عشر ، حين ظهرت طلائع الأدب غير الكنائسى . ولم تتعد هذه الحركة الأدبية عدة قصائد تملق ومديح للقيصر ، وتمجيد لعظمته وغزواته البربرية وكان ذلك طبيعيا لسيطرة الاقطاع والكنيسة على الأدب والثقافة وتوجيههما توجيها خاطئا ، يمجد الأسياد ويتغنى بعظمتهم ، ويجعل من طغيانهم نعمة ، ومن قسوتهم كرما . وظهرت فى هذه الفترة اليوميات التاريخية والأساطير الشعبية . وقد أفلحت سيطرة الأقطاع والكنيسة فى تحطيم كل محاولة لخلق أدب ينادى بتحرير الفلاح الروسى من نير القنانه . ووصف أحد الكتاب الفرنسيين الحالة فى روسيا فى ذلك العهد فقال « روسيا بلد عجيب ، ربع يملك ، وثلاثة أرباع تكدح وتعمل فى عبودية القيد » . وانتشرت فى هذه الفترة قصص تضليلية مصدرها الكنيسة تصف القيصر « بالأب الأصغر » و « بظل الله فى الأرض » وبقى الأدب الروسى يرسف فى أغلال عبودية الكنيسة إلى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر .

وكانت الثورة الصناعية قد عمت بلدان أوروبا الكبرى فى هذه المرحلة . وارتفعت أصوات البورجوازية الأوروبية تطالب بديمقراطية

برلمانية . فترددت صدى هذه الأحداث فى روسيا ، وظهرت فيما بعد طبقة من المفكرين تطالب بتصنيع روسيا ووضع حد للنظام الاقطاعى وتحرير الأقنان . وفعلا قامت فى هذه المرحلة عدة ثوارت بين الأقنان تطالب بحريتهم .

وكان طبيعيا أن يتردد صدى هذه الأحداث فى نفس الأدباء الروس فظهرت طلائع الأدب الروسى الحديث . إلا أن هذه الطلائع اتجهت اتجاها رمزيا خوفا من تعسف القيصر وطغيانه ، فظهر شعراء مثل جبريل روما نوفيتش ديرجافين (١٧٤٣ — ١٨١٦) يصورون حالة روسيا على ألسنة الحيوان ، أو عن طريق وصف أحوال الحيوانات . وفى أواخر القرن الثامن عشر أصدر الشاعر المذكور قصيدته « شكوى » التى يقول فيها :

« اصطادوا عصفورا مغـــردا

« ووضعوه فى قفص خشبى صغير

« وناح العصفور بدلا من أن يغرد

ولكنهم تابعوه قائلين : غرد أيها العصفور ، غرد . . . »

وكأن ديرجافين فى هذه القصيدة كان يصور الحالة التى وصل اليها الشعب الروسى الراسف فى الأغلال ، مكمم الفم مشلول الارادة .

وارتفعت أصوات الفـــلاحين مطالبة بالتحرر أكثر فأكثر ، فظهرت تبعا لذلك اتجاهات أدبية جديدة فى روسيا بعد أن مل الأدباء لغة الرمزية التى عجزت عن التعبير عما يجول فى صدورهم من ثورة وأسى وحزن ، واصطبغت هذه الاتجاهات بالصبغة الرومانطيقية .

وكان اول طلائعها الشاعر فاسيلى أندريفيتش جوكوفسكى (١٧٨٣ — ١٨٥٢) الذى يتحسر فى قصيدته « الذكرى » على رفاقه الذين مضوا إلى المشانق وإلى مجاهل سيبيريا . وبين هذا التحسر تجد روحا من الأمل والايمان بالمستقبل فتراه يقول :

« لاتقل عن رفاقنا الأحباء الذين حببوا إلينا
« بصـــداقتهم عالم العرق والكفاح
« لاتقل : أنهم ليسوا هنا
« بل قل : لقد كانوا هنا ... »

ويجب ألا يغيب عن ذهننا ونحن بصدد الحديث عن الروما نطيقية ذكر شاعر روسيا العظيم الكسندر سرجيفيتش بوشكين (١٧٩٩ — ١٨٣٧) الذى خلد فى شعره ثورة « الديسمبريين » تلك المحاولة العظيمة التى قام بها الشعب الروسى فى ٢٦ ديسمبر عام ١٨٢٥ لتحطيم قوى الاقطاع والرجعية . ولكنها باءت بالفشل .

وتوالت رياح الرومانطيقية على روسيا ؛ ولكنها لم تكن رياح رومانطيقية تؤمن « بالفن من أجل الفن » ذلك المفهوم الذى يتعارض كلية مع مفهوم الكتاب الروس عن رسالة الأديب والفنان الاجتماعية ومع دعائم الأدب الروسى التى تقوم على أسس إنسانية ديمقراطية ؛ بل كانت طريقة من طرق التعبير الفنى عن أحاسيس الكتاب الذين هزت مشاعرهم رؤية أكبر رؤوس روسيا فى الأدب والنقد والشعر ينفون إلى مجاهل سيبيريا ، أو يساقون مكبلين بالأغلال إلى المشانق . وقد كان لسيطرة الكنيسة والاقطاع أثر كبير فى ازدهار الروما نطيقية ونموها ؛ لأنهما أرادا استغلالها فى تحطيم كل مبدأ جديد ينمو لتمجيد العلم والنزعة الواقعية .

ولكن هدفهم هذا لم يتحقق ، لتسلل مبادىء الثورة الفرنسية فى مستهل القرن التاسع عشر إلى روسيا عن طريق البعثات الروسية التى كانت تعود من فرنسا لتتكلم عن فولتير وروسو . وعن الحرية والاخاء والمساواة . ووجدت هذه الثورة هوى فى نفوس الروس المتعطشين إلى التحرر من نير الاقطاع ومن طغيان القيصر والكنيسة ؛ وشجع ذلك الطبقة البورجوازية النامية ، وتجاوب الأدب الروسى مع هذا التعطش وظهر جيل جديد من الكتاب يؤمن بالواقعيـــة ، أمثال نيقولاى فاسيليفيتش جوجول (١٨٠٩ — ١٨٥٢) وقد تضاربت الآراء حول مكانة جوجول فى الأدب الروسى ، فقال البعض أن الأدب الروسى الحديث ، وعلى ما أظن هذا هو الأرجح ، يبتدىء من قصة « المعطف » لجوجول . وقال دستويفسكى فى ذلك : « كلنا ننحدر من « معطف » جوجول » ، وقال البعض الآخر أن جوجول مرحلة المرور من الرومانطيقية الى الواقعية .

وفى هذه المرحلة ، وللمرة الأولى فى تاريخ الأدب الروسى راح يبتعد عن تقاليده الانسانية والديمقراطية . فاجتاحته أكثر مبادىء الفكر والفن رجعية ، أمثال الرمزية والصـــوفية وسيطر إلى حين مبدأ « الفن من أجل الفن » تشجعه العناصر الرأسمالية والنقاد البورجوازيون والصحافة الصفراء ، وذلك ليحطموا الاتجاه الجديد القوى الذى برز فى الأدب الروسى ، اتجاه تصوير الواقع ومعالجة الأمور معالجة علمية صرفه محدودة بحدود النظرة العلمية للتاريخ .

وتسربت فى هذه الآونة روح التشاؤم التقليدية فى الأدب الروسى ولم ينج من هذه الحركة الرجعية إلا تولستوى وكورلنكو وحدهما .

إلا أن تولستوى عاد فى أواخر حياته فتأثر بالصوفية ومات صوفيا .

وتغلغلت الرأسمالية فى هذه الآونة ، أى فى أواخر القرن التاسع عشر ؛ فى جميع مرافق الحياة الروسية ، فتحرر الأقنان ، وتخلت البورجوازية عن شعاراتها التقدمية التى كانت تطالب بها من قبل ، وأصبحت من أكثر الطبقات رجعيـــة وجمودا وسندا قويا للقيصر فى تعسفه وطغيانه وفى كلمة واحدة كان الجو ثقيلا ، مرهقا ، قاسيا . فالرجعية قد انتصرت وتغنى أذنابها بهذا الانتصار فى وقاحة وشماتة . وآثر كل ذى فكر جيد صالح الانطواء على نفسه بعد أن تخيل أن لا طائل من وراء الجهاد فى سبيل أفكاره . فازداد التشاؤم والانحلال والانهيار . وظهر كتاب مثل دستويفسكى (١٨٢١ — ١٨٨١) يرسمون شخصيات معذبة ، مريضة ، تثقل كاهلها مشكلة الشر ، فلا تجد لها خلاصا إلا فى المسيحية .

ولم تختلف شخصيات جارشين (١٨٥٥ — ١٨٨٨) عن شخصيات دستويفسكى إلا فى كونها لا تجد لها خلاصا حتى ولا فى المسيحية ، فهى لا تعرف سبباً لحياتها ، وتموت فلا تدرى سبباً لموتها . وينغمس جارشين فى الرومانطيقية المشوبة ببعض من الرمزية فيصور لنا النباتات والحيوانات على أنها تتعذب . صورة قاتمة سوداء ، يغمر فيها الأسى والألم الكون بأسره . والناس يسعون إلى اقتلاع جذور هذا الشر ، ولكن عبثاً يجاهدون ، فالشر أقوى جذوراً من البشر .

ولم يختلف أنطون بافلوفيتش تشيخوف (١٨٦٠ — ١٩٠٤) عن جارشين فى شىء سوى تخلصه من الرمزية والرومانطيقية . فهو

يرسم صوراً كاملة واقعية لمجتمعه ، ولكنها صور مليئة بالكآبة والأسى فالفلاح فى نظره انسان بائس دمرته الخمر ، يؤمن بالسخافات والأباطيل والمثقف البورجوازى أنانى ، مادى إلى أبعد حدود المادية الأنانية ، حياته تافهة حقيرة . ونبلاؤه قوم متفسخون ، مضى عهدهم ؛ ولا يرجى منهم أى خلاص لهذا المجتمع . أما أفراد الطبقة البورجوازية الصغيرة التى يصفها تشيخوف دائماً ، وغالبا تجد أبطاله ينتمون اليها ، فحياتهم محدودة ، وتفكيرهم محدود رتيب ليس فيه أى مكان للمثل العليا ، همهم الأوحد جمع المال . وهكذا تتابع شخصيات تشيخوف ، شخصيات أرهقتها الحياة والبؤس ، وفى الغالب شخصيات أنانية فردية لا تعرف معنى الأخوة والتضامن ، « اعتصرتها قبضة الحياة اليومية التى لا يستطيع أى مثل أعلى وأية عاطفة مجردة مقاومة لها . » وهكذا تفوح من مؤلفات تشيخوف رائحة التشاؤم والاستسلام للمصير المحتوم .

أما أبطال فيودور سولوجوب (١٨٦٣ - ١٩٢٧) فإنهم يكرهون الحياة ، ويسعون وراء الخلاص منها . والذين يتركهم سولوجوب يعيشون ، أو يريدون الحياة ؛ فتجدهم أقرب الى الأشباح منهم إلى البشر . . فالحيـــاة فى نظره ما هى الى ملل ، وفودكا ؛ وفضائح ، ويأس ، وتفاهة .

وفى وسط هذا الجو الخانق ، وهذه القسوة والطغيان . . والمعركة المستعرة بين قوى الرجعية التى تؤازر أدب الانحلال والتشاؤم وقوى التطور والتقدم التى تنادى بأدب الحياة ، الأدب الواقعى الصحيح ، جاء مكسيم جوركى (١٨٦٨ - ١٩٣٦) ... جاء ليقول : « لقد قدمت إلى هذا العالم كى اختلف معه . » واختلف الفتى المتشرد مع العالم .

اختلف مع اليأس والجمود والرجعية فاطلق صيحته ضد الانحلال والتشاؤم مرددا صدى صيحات الكفاح التى أصدرتها الطبقة العاملة النامية التى تريد لها مكانا تحت الشمس . ورسم جوركى طريق الخلاص التى وصفها بقوله : « وجدت طريق الخلاص فى التأمل الشخصى والعمل الثورى . »

وأحدث جوركى ثورة فى عالم الأدب ومفهومة ، وحقق للمرة الأولى - فى تاريخ الانسانية - فى أروع صورة وأكملها دور الأديب الاجتماعى كما يجب أن يكون . وقد اختار هذا الطريق لتأكده ، كما يقول ثيودور درايزر « من امكانية التوحيد بين حل كل مسألة علمية خاصة مع الحل العلمى للمشكلة الاجتماعية . » وعرفت روسيا على يدجوركى الواقعية الأدبية الاشتراكية .

وآتت أفكار فولتير وروسو وثورات عام ١٨٤٨ البورجوازية الديمقراطية فى أوروبا ثمارها فى روسيا عام ١٩٠٥ ، فاندلعت نيران الثورة بعد هزيمة روسيا فى الحرب الروسية اليابانية ، تطالب بالحرية والخبز تحت قيادة الحزب الاشتراكى الديمقراطى . ودامت الثورة ستة أشهر أخمدت بعدها بالرصاص والبنادق والمشانق .

وأخرج جوركى بعد فشل هذه الثورة كتاب « الأم » عام ١٩٠٦ وكان سجلا حافلا لتاريخ الثورة ولكفاح الطبقة العاملة الصاعدة النامية . وأكثر من هذا أيضاً ، كان قوة تبعث الايمان فى النفوس من جديد ، وتنير أفاق المستقبل ، وتجند للنضال من جديد القوى المبعثرة بعد أن فشلت الثورة وأصبحت الموجة الثورية فى انكماش وجزر وابتدأ اليأس يدب فى قلوب الكثيرين .

وتتالت قصص جوركى ، قصصاً تصور الحياة المريرة التعسة وتبعث من حناياها روح الأمل والايمان فى المستقبل . ولقى جوركى ، كما لقى غيره ، جميع أصناف المقاومة والاضطهاد من قبل الحكومة . فما كان هذا إلا ليزيد القوى المتقدمة قوة فى معركتها ضد الأدب التشاؤمى المنحل وضد الرمزية والصوفية . وانتصر جوركى ومبدؤه على الرجعية . . . الرجعية الفكرية والاقتصادية والسياسية .

فى عام ١٩١٧ — بعد اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى — هبت روسيا عن بكرة أبيها تطرد القيصر وتضع حداً لحكومته الطاغية وتؤسس أول دولة للعمال والفلاحين عرفها التاريخ . . .

وتغنى الأدباء بالثورة وعاد من هرب منهم إلى الخارج خوفا من بطش بوليس القيصر السياسى ومشانقه . . وتحطم كل أثر من آثار الرومانطيقية والرمزية والصوفية ، واتخذ الأدب صفة جديدة ، صفة الواقعية الاشتراكية . . . أو الأدب البروليتاوى . . .

وتوالى على روسيا جيل من الكتاب يؤمن بجوركى ويتتبع خطاه فيرسم الطريق لكل من يحب الانسانية ويؤمن بها . وكان أفرتشينكو ، وسرجيف تزنسكى ، وشبانوف ، والكسى تولستوى ، وأنا أخمتوفا ، وكيريلوف ، وإيليا أهرنبورغ وغيرهم كثيرون . . .

وها أنت ذا ترى الآن أيها القارىء أن الأدب الروسى ، رغم حداثته فتاريخه لا يتعدى قرنين من الزمن ، هو أروع الآداب العالمية قاطبة وأقواها وأغزرها مادة وتحليلا . فالأدب الروسى لم يعرف الرجعية الفكرية التى تكفر بالانسان ، كما عرفتها الآداب الأوربية كالأدب الفرنسى مثلا ، فهو دوما متصف بالانسانية والديمقراطية .

وإذ أضع الآن بين يديك هذه المجموعة من القصص التى تمثل تطور القصة الروسية فى جميع مراحلها الحديثة ، من دستويفسكى حتى عصرنا هذا ، آمل أن أكون قد حققت ما أصبو إليه من تنمية الثروة الانسانية فى المكتبة العربية التى تزخر فى هذه الأونة الحرجة من تاريخنا ، تاريخ الكفاح من أجل التحرر والانطلاق وتحطيم سيادة الأمر المطلق ، بالأدب العقيم المبنى على قواعد اللف والدوران والألفاظ المزخرفة المنمقة .

وإنى لعلى يقين بأن هذا الكتاب سيجد مقامه اللائق ، الذى وجده كتابه العظام فى نفوس الشعب الروسى ، سيجد مقامه اللائق فى النفوس التى تحب الانسانية وتدافع عنها .

مازن الحسينى

س . ت سيمنوف

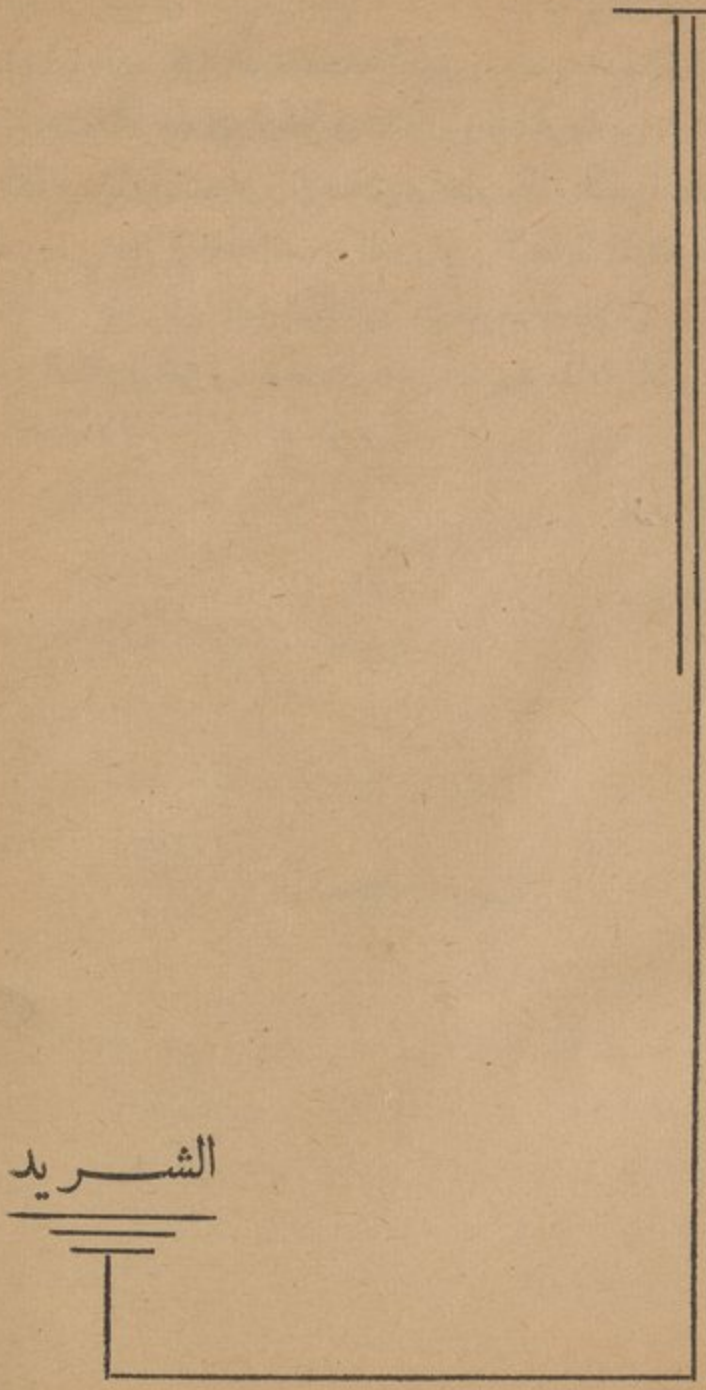

الشـــريد

س . ت . سيمنوف

لست أجد وصفاً لسيمنوف أصدق من كلمات الناقد الأميركى ثوماس سيلتزر : « إن سيمنوف شخصية فذة وفريدة من نوعها فى تاريخ الأدب الروسى ، فهذا الفلاح الذى لم يتمكن من قوانين القراءة والكتابة ولم يلم بأى جانب من جوانب الأدب ، أمسك القلم ليخط أولى قصصه التى أعجب بها كاتب روسيا الكبير — فى ذلك الحين — ليو تولستوى . »

وسيمنوف من أئمة القصة القصيرة الروسية ، ورائد من رواد الأدب الواقعى . توطدت بينه وبين تولستوى أواصر الصداقة ، بعد أن اطلع الكاتب الكبير على أولى قصص سيمنوف فشجعه وبث فيه روح الثوره والإيمان بالمستقبل .

إلا أن سيمنوف ، فى جميع مراحل حياته . ظل وفيا لمبدأ « الفن فى سبيل الحياة » . فلم تسيطر عليه مبادىء الفن الرجعية أمثال الصوفية والرمزية ، كما سيطرت على صديقه تولستوى فى أواخر حياته .

وجميع قصص سيمنوف تتحدث عن الفلاح الروسى الذى هدّه الفقر وكادت تحطمه الاقطاعية ، أو عن الفلاح الروسى الذى ضل الطريق فى المدن الصناعية الكبرى وكاد يجرفه تيار الانحلال والفساد . إلا أنه يبعث الأمل والإيمان من حنايا هذه الأوضاع التعيسة . فدائما ترى النصر فى قصصه للخير الذى يصارع الشر صراعاً طويلا مميتاً .

وتغلب على سيمنوف فى جميع قصصه روح البساطة والواقعية الممتلئة بالحياة .

الشريد ...!

عاد جراسيم إلى موسكو قبل عيد الميلاد بفترة قصيرة حيث تتأزم الحالة ويصعب على أى إنسان أن يجد عمل مهما كان نوعه . وفى هذه الفترة يتمسك العمال بأعمالهم طمعاً فى هدية صغيره يمنحها لهم صاحب العمل . أمضى جراسيم ثلاثة أسابيع حفيت خلالها قدميه بحثا عن عمل - ولكن من غير جدوى .

وكان قد حل ضيفا ، عند عودته من القرية ، على بعض أصدقائه ومعارفه ، ومع أن الجوع والحاجة لم ينشبا مخالبهما فيه بعد ، إلا أنه تألم كثيرا لوجود شخص قوى البنيه سليم الجسم مثله متعطلا ، لايجد عملا .

وجراسيم يعيش فى موسكو منذ طفولته ، لابل تربى ونشأ فيها واشتغل وهو صبى صغير بغسل زجاجات الخمر فى أحد مصانع تقطير الخمور ، ثم انتقل إلى الخدمة فى بيت أحد السادة ؛ وفى السنوات الأخيرة كان يعمل موظفاً عند أحد التجار ، ولو لم يطلب للخدمة العسكرية لكان اليوم فى خدمة ذلك التاجر .

وها هو لم يجند ، ولم يتعود حياة الريف المملة التى كادت تقضى عليه من الضجر ، فقرر أن التسكع فى موسكو وعد حجارة الطريق أحسن بكثير من الحياة فى القرية ؛ وهكذا عاد إلى موسكو .

إلا أن اعتقاد جراسيم هذا لم يطل ، فقد أمضى ثلاثة أسابيع فى التسكع وحفيت قدميه بحثا عن عمل ، وكلما مرت الدقائق والساعات

وهو بلا عمل يتسكع فى شوارع موسكو ، كما ازداد ضجره وملله ونقمته .

وفى حالته اليائسة هذه ، لم يترك أحداً من معارفه من غير أن يزعجه بأسئلته المتكررة عن مكان يشغله أو عمل يعمله . وحتى المارة فى الشوارع كان يستوقفهم سائلا - وفى كل مرة كان يسمع نفس الجواب .

وأخيراً لم يستطع جراسيم البقاء حملا ثقيلا على معارفه وأصدقائه الذين تضايق بعضهم لقدومه ، وضحى آخرون براحتهم فى سبيل إطعامه ونومه ؛ وردد جراسيم فى نفسه مراراً : « لا أستطيع البقاء .. لا أستطيع ... لا أستطيع » ولكنه لم يعرف أين يتجه ، وقال لنفسه : « إننى على استعداد لتمضية أيام بلا أكل . » ولكن السؤال نفسه عاوده : إلى أين يتجه ؟

* * *

وفى أحد أيام حزنه الشديد ، اتجه جراسيم إلى أحد معارفه الذين تعرف عليهم فى القرية ؛ وكان يعيش هذا الرجل فى أحد أطراف موسكو ، بالقرب من سكولنيك ، ويعمل حوذياً عند تاجر يعرف باسم شاروف ، استماله بطلاقة لسانه حتى أصبح يأتمنه ويعزه ، فاصبح الامر الناهى فى المنزل بلا منازع .

وحين رأى الحوذى جراسيم حياه بحرارة واستقبله استقبالا طيباً ثم قدم له شيئاً من الأكل وقدحا من الشاى وسأله عن أحواله .

فقال جراسيم : « سيئة يا يغور دانيلتش . لقد مضى على عدة أسابيع بلا عمل . »

سأله يغور : « ألم تطلب من سيدك السابق أن يعيدك إلى عملك ؟ »

قال جراسيم : « لقد فعلت . »

« ولماذا لم يعدك ؟ »

« لأن شخصاً آخر قد حل مكانى . »

« هذه هى بليتكم أيها الشباب ، إنكم تخدمون أسيادكم بلا اهتمام ، حتى إذا تركتم العمل سدت حماقتكم طريق العودة إليه . يجب عليك أن تخدم سيدك بإخلاص وأمانة حتى إذا عدت إليه تطلب عملا لم يجرء على رفضك . » وهنا اعتدل يغور فى جلسته وتابع قوله : « خذنى مثلا ؛ فأنا إن تركت عملى ، وعدت أطلب من السيد شاروف أن يستخدمنى ثانية ، فسوف لا يقبلنى فقط ، بل سيستقبلنى بحرارة وترحاب »

وطأطأ جراسيم رأسه يتفحص الأرض بعينيه وهو يستمع إلى نصيحة صديقه ، ودلته خبرته على أن صديقه يريد أن يتباهى ويتفاخر ، ولم يجد ضرراً فى إرضاء غروره فقال : « أننى أعرف ذلك ، وأنت تعرف يايغور بأنه من الصعب إيجاد شخص آخر يتمتع بالمزايا التى تتمتع بها . ثم لو أنك كنت عاملا فقيراً لما أبقاك سيدك إثنى عشر سنة . »

وابتسم يغور لسماع هذا المديح الذى أرضى غروره ، ثم قال :

« أجل ياصاحبى ، إذا أردت أن تعيش وتعمل مثلى لما وجدت دقيقة واحدة تستريح فيها خلال عدة أشهر . »

ولم يجب جراسيم ، وذهب يغور ليرى سيده الذى أرسل فى طلبه وقبل أن يذهب استأذن صديقه قائلا :

« سأعود بعد برهة »

فهز جراسيم رأسه قائلا : « حسنا »

* * *

عاد يغور ليقول بأن عليه أن يهيء العربة والخيول فى نصف ساعة ليأخذ سيده إلى المدينه . وأشعل غليونه وخطا عدة خطوات استدار بعدها إلى صديقه قائلا :

« اسمع يا صاحبى ؛ إذا أردت فسوف أطلب من سيدى أن يستخدمك هنا . »

فسأله جراسيم بلهفة : « وهل هو فى حاجة إلى رجل ؟ »

« يوجد عندنا الآن خادم ، ولكن هو أو قلته سواء . فهو طاعن فى السن لا يقدر على القيام بأعباء المنزل . ومن حسن حظنا أن المنطقة ليست مأهولة ، فلو أنها كانت لتدخل البوليس وطلب تنظيف المكان ، ولما قبل القذارة الحالية . »

قال جراسيم : « أرجوك إذا كان بإمكانك اقناع سيدك أن تفعل يايغور دانيلتش ، وسأصلى لك طيلة حياتى . فأنا لا أطيق هذه الحياة الصعبة . »

فقال يغور : « حسناً ، سأفعل . احضر غداً إلى هنا وسأخبرك بما سيحدث . والآن اليك العشرة كوبيكات هذه ، ربما احتجتها . » وأخرج المبلغ من جيب سرواله .

صافح جراسيم صديقه وقال : « شكراً يا يغور داينلتش ، فأنا أعتمد عليك ، أرجوك أن تؤدى لى هذا المعروف . »

فأجابه يغور : « حسناً ، سأفعل كل ما فى وسعى . »

وخرج جراسيم من بيت السيد شاروف وهو يحلم بالعمل فيه ؛ وأسرع يغور إلى الخيل يسرجها . وساق العربة إلى باب المنزل فركب سيده ، واتجه به إلى المدينة لقضاء بعض الأعمال ، وكر عائداً به إلى المنزل .

وكان السيد شاروف منشرح الصدر فى تلك الليلة ، فتقدم منه يغور وقال :

« أيها السيد يغور فيودوريتش ، إن لى رجاء عندك . »

قال السيد شاروف : « قل ما هو ؟ »

« هناك شاب من قريتى متعطل . »

« حسناً ؟ »

« ألا تستطيع استخدامه عندك ؟ »

« عندى ؟ ولكن ماذا أريد به ؟ »

قال يغور وهو يمعن النظر فى سيده : « خادم يقضى لك جميع حاجاتك . »

ألا أن الأخير لم ير كيف يمكن استخدام ذلك الشاب خادماً وعنده الخادم بوليكاربتش فقال :

« ولكن هنالك بوليكاربتش ! »

قال يغور محاولا اقناع سيده : « إنه عديم النفع ؛ وأظن أن الوقت قد حان لأن تطرده . »

فاستنكر سيده ذلك قائلا : « ليس من العدل أن أطرده بعد أن أفنى حياته فى خدمتى ؛ اننى لا أقدر أن أفعل ذلك . وكيف تريدنى أن أفعله بلا سبب ؟ »

« وإن كان قد أفنى حياته فى خدمتك ! انه لم يخدمك لوجه الله ، بل دفعت له أجره . وأنا لا أشك بأنه أدخر بعض الروبلات لمثل هذا اليوم . »

ضحك السيد شاروف لسماع هذه الكلمات وقال : ادخر ! وكيف يدخر ؟ ان له زوجة يطعمها ويعيشها . »

قال يغور : « إنى أعرف ذلك . ولكن امرأته ليست عاطلة ، بل تعمل فى بيع الفحم ، ومن غير المعقول أنه لم يدخر شيئاً . »

فأجاب السيد فى سخرية : « وماذا ستربح امرأته من بيع الفحم ؟ هل ستكسب ما يمكنها من شراء موسكو ؟! »

« ولماذا تهتم هذا الاهتمام ببوليكاربتش وزوجته ؟ إذا أردت القول الحق فهو خادم لا نفع له . لماذا ترمى نقودك هكذا ؟ إنه لا ينظف الطريق من الثلج فى الميعاد المحدد ولا يقوم بأى عمل . وحين يأتى دور حراسته يسهو ما يقرب من العشرة مرات كل ليلة . إنه لا يقدر على تحمل البرد . وإذا لم تهتم بأمورك سيقع قريباً سوء تفاهم بينك وبين السلطات بسبب كسله وعدم تنظيفه المكان »

قال السيد : « إنى لا أجد القلب لطرده يا يغور . لقد أمضى فى خدمتى خمسة عشر عاماً . وطرده بعد هذه السنين يعد خطيئة لا تغتفر . »

فأجاب يغور مستنكراً : « خطيئة ! معاذ الله . وكيف تعد خطيئة ؟! إنك لن تركب جرماً ، فهناك الجمعيات الخيرية ستتكفل به وتريحه من التعب الذى يتكبده كل يوم . »

وفكر شاروف طويلا قبل أن يقول : « حسناً يا يغور . ادع صديقك إلى هنا وسأرى ماذا يمكننى عمله . »

« أرجوك أن تستخدمه ياسيدى ، فهو شاب لطيف مخلص ، سيفنى نفسه فى خدمتك . اضطر لترك عمله حين دعى للخدمة العسكرية ولولا ذلك لما تركه سيده يذهب . »

* * *

وعاد جراسيم فى مساء اليوم التالى ليسأل صديقه :

« حسناً ، هل أمكنك عمل شىء بخصوصى ؟ »

« على ما أظن اننى وفقت . ولكن لنشرب أولا شيئاً من الشاى وبعد ذلك سنقابل السيد . »

ولم يكن جراسيم فى حاجة إلى الشاى ، أو إلى أى شىء آخر ؛ فهو على أحر من الجمر يود معرفة الجواب النهائى . ولكنه لم يستطع رفض طلب صديقه ، فتجرع كأسين من الشاى فى أسرع ما يمكن ، قاده يغور بعدها إلى مقابلة السيد شاروف .

وسأله السيد الأسئلة العادية عن حياته ، وعمله السابق ، وأخبره بأنه على استعداد لاستخدامه كخادم يقوم بجميع الأعمال ، وبأن عليه أن يأتى فى اليوم التالى مستعداً لاستلام عمله .

وتقبل جراسيم نبأ قبوله بسرور شديد ، حتى أنه لم يقو على الوقوف ؛ وجر قدميه إلى غرفة صديقه الذى ابتدرة قائلا :

« حسناً ، أرجو أن تنتبه إلى عملك ولا تجعلنى أطأطىء رأسى خجلا أمام السيد . فأنت تعرف السادة وشدتهم . إذا أخطأت مرة واحدة استمروا فى نقدك حتى توارى التراب » .

قال جراسيم وقد أخذ الفرح منه مأخذا عظيما : « لا تقلق بالك من هذه الناحية يايغور داينلتش » .

فنفخ يغور أوداجه إستعداداً للتباهى والتفاخر وقال : « حسناً — حسناً . » .

إلا أن جراسيم الذى شعر بقدوم مواعظ صديقه وأمثلته التى لا تتعدى نفسه لم يترك له الفرصة بل إستأذن فى الذهاب وخرج على أن يعود فى اليوم التالى .

وحين خرج جراسيم من منزل السيد شاروف مر بغرفة بوليكاربتش الخادم العجوز ، التى تقع فى فناء المنزل ، ونظر من النافذة إلى الداخل ليستطلع أحوال سكنه الجديد ، ولكنه لم يستطع تميز شىء ما — فقد أوجد البرد طبقة كثيفة من الصقيع على زجاج النافذة يصعب رؤية شىء خلالها . وسمع صوت إمرأة تسأل :

« ماذا سنعمل الآن ؟ »

فأجابها صوت رجل — بلا شك صوت بوليكاربتش : « لست أدرى . . . لست أدرى . . . ربما نسأل فى الشوارع » .

قالت المرأة فى حزن : « أجل ، هذا كل ما نقدر عمله ، فلم يتبق لنا شىء آخر . يا لحياتنا نحن الفقراء ، إنها مليئة بالتعاسة والشقاء . إننا نعمل يوما بعديوم من الصباح الباكر حتى أوائل الليل ، نفنى العمر كله فى العمل وبعد ذلك يكافئوننا بقولهم : أحزموا أمتعتكم وارحلوا » .

« وماذا يمكننا عمله ؟ أن السادة ليسوا من طينتنا - لا تجدى مناقشتهم ، ومصلحتهم تأتى قبل كل شىء » .

« يالوضاعة السادة ، أنهم لا يفكرون إلا بأنفسهم ، وأما نحن ، الذين نفنى العمر فى خدمتهم بأمانة وإخلاص ويمتصون دماءنا وجهدنا وعرقنا فليس لنا أدنى إهتمام لديهم . حين تتقدم بنا السن يقولون لنا : أخرجوا . ومع أننا لانزال نملك من القوة ما يمكننا من القيام بأعباء العمل . هل يظنون أننا لو لم نستطع العمل سنقبل أن نعيش عالة عليهم ؟ ! » .

قال الخادم العجوز : « لا تلومى السيد ، بل الذى يلام هو ذلك الحوذى يغور دانيلتش الذى يود إيجاد عمل لصديقه » .

فقالت المرأة : « أجل ، أنه حية رقطاء تنفث سمومها . ولكن إنتظر أيها الحيوان وسترى كيف سأرد لطمتك هذه باثنتين . إنتظر حتى أذهب إلى السيد واخبره عن خداعك وكذبك وسرقتك المستمره للتبن . سأكتب كل ذلك وأرسله إلى السيد حتى يعرفك على حقيقتك » .

فنهرها الخادم العجوز بصوت واهن ضعيف : « لاتتكلمى هكذا أيتها العجوز ، لاترتكبى خطيئة . »

« خطيئة ؟ ! وأين الخطيئة ؟ أليس ما قلته حقيقة ؟ أننى أعرف ماذا سأفعل ، وأنا أعنى ما أقول . سأذهب إلى السيد وأخبره فى الحال . يجب أن يرى بأم عينيه سرقة خادمه الأمين . لماذا لا أتكلم ؟ لقد حطمنا ، لقد قضى علينا . فماذا نحن فاعلون الآن ؟ إلى أين سنذهب ؟ لقد قضى علينا ... »

وانفجرت المرأة باكية ...

سمع جراسيم كل ذلك الكلام . فغاص فى أعماقه كالنصل وشعر بالبؤس الذى سيحله عمله بالخادم العجوز وامرأته . فوقف فى مكانه كأنه سمر إلى الأرض، منكس الرأس، حزين الفؤاد ، مبلل الفكر . ثم جر قدميه عائداً من حيث أتى ، إلى غرفة صديقه الحوذى الذى استغرب مقدمه ، فسأله بدهشة :

« ماذا أتى بك ؟ هل نسيت شيئاً ؟ »

قال جراسيم بصعوبة : « كلا يا يغور دانيلتش . ولكن جئت لأقول لك . . . » وهنا توقف عن الكلام ليأخذ نفساً عميقاً ثم تابع : « لأشكرك كثيراً على . . . الطريقة التى استقبلتنى بها . . . و . . . وللمتاعب التى سببتها لك . . . ولأقول لك . . . أنى . . . لا أستطيع العمل هنا » .

فسأله يغور بحده واستغراب : « ماذا ؟ ! ماهذا الهراء ؟ !

« إنه لايعنى شيئاً . فأنا لا أريد هذا العمل وسأبحث عن عمل آخر بنفسى . »

وفقد يغور أعصابه وصاح فى وجه جراسيم بحدة وغضب :

« هل أردت أن تجعلنى مهزلة أمام سيدى أيها الأبلة . لقد أتيت إلى هنا متذللا ولو أمكنك لقبلت الأرض بين قدمى وأنت تقول : أرجوك أن تحاول لدى سيدك . . . أرجوك أن تفعل . والآن ترفض أيها الوغد . أنك تعرنى بعملك هذا ! »

ولم يجب جراسيم على هذا السيل من الشتائم بل طأطأ رأسه واحمر وجهه ثم التقط قبعته وخرج .

وتمهل جراسيم وهو يسير فى فناء المنزل . وما أن خرج من المنزل حتى أسرع الخطى وقد امتلأ قلبه بالسرور والسعادة ...

دستویفسکی

لص شریف

فيودور مايكلوفيتش دستويفسكى

ولد دستويفسكى عام ١٨٢١ فى مدينة موسكو . وتوفى عام ١٨٨١ . وكان أصغر أبناء طبيب من أطباء الريف ، فظ الطباع وزير نساء . وكان جده لأبيه قسيسا ، ويقال بأن عائلته كانت من اعرق واكبر العائلات الدينية فى روسيا . الا أن فيدور تشبع منذ حداثته بروح الشك وعدم الايمان ، فاصطبغت بعض قصصه بالنزعة الالحادية ، ولاسيما قصة « الأبله » التى نقد الكنيسة فيها نقداً مرا على لسان بطلها الأبله .

وكان دستويفسكى منذ حداثته فريسة لنوبات من الصرع أفسدت عليه حياته

ابتدأ دستويفسكى حياته العملية ضابطا فى جيش القيصر ، وسرعان ما طرد منه لأنه رفض الانتقال إلى الريف ، وفضل البقاء فى بطرسبرج بين الكتب والمؤلفات .

وعرف العالم دستويفسكى أديبا فى سن الرابعة والعشرين ، أى بعد أن طرد من الخدمة العسكرية بعام واحد ، وذلك حين أصدر قصة « المساكين » .

ودستويفسكى علم من أعلام القصة ، ولاسيما القصة الطويلة الانسانية . فقد تجسدت فيه ، كما تجسدت فى جوركى فيما بعد ، عناصر تكوين امته . وابطال رواياته صورة حية صادقة للشعب الروسى ، بمتناقضات مجتمعة ، وعمق تأثره ، وصبره ... الذى يخفى بين طياته تحفزا وثوره . وقصة « لص شريف » تجسد لمتناقضات هذا المجتمع ولتأثر هذا الشعب .

وصف دستويفسكى نفسه فقال : « انى طليعة معركة تخاض ضد ادب مجتمعى » ، ووصفه الناقد الروسى ستراهوف فقال : « بلاشك لقد كتب دستويفسكى عُشرَ القصص التى قرر أن يكتبها ... أن المواضيع التى لم يكن لديه وقت لمعالجتها لا تعد ولا تحصى ... »

لص شريف

حين كنت على وشك الذهاب إلى عملى فى صبيحة أحد الأيام ، أتت اجرافينا ، طاهيتى وغسالتى ومدبرة منزلى إلى غرفتى ، ولعظيم دهشتى بدأت تكلمنى .

كانت أجرافينا دائمة الصمت ، بسيطة ، لم يتعد كلامها عدة أسئلة عن الطعام خلال السنوات الست التى قضتها فى خدمتى . على الأقل هذا ما أعرفه .

قالت فى جفاء : « أود محادثتك أيها السيد . يجدر بك أن تؤجر الغرفة الصغيرة . »

- أية غرفة ؟

- الغرفة التى بجانب المطبخ . إنك تعرفها !

- ولماذا أؤجرها ؟

- لماذا ؟ لأن الناس تفعل ذلك . انك تعرف !

- ولكن من سيستأجرها ؟

- من سيستأجرها ؟! ساكن بالطبع . من تظن ؟

- ولكنها أيتها المرأة الطيبة لا تتسع إلى سرير ، ولا يوجد فيها موضع لقدم ! ومن ذا الذى سيعيش فيها ؟

- من ذا الذى سيعيش فيها ؟! مادام لديه مكان ينام فيه انه سيعيش فى النافذة .

- فى النافذة ؟ ! وأية نافذة ؟

- أية نافذة ؟ كأنك لا تعرف ! التى فى الممر . انه سيجلس هناك يحيك الثياب ، أو يقوم بأى عمل آخر ، وربما جلس على كرسى . إن لديه

كرسيا ، ولديه مائدة أيضا ، عنده كل شيء .

- من هو ؟

- آه ! إنه رجل طيب ، رجل ذو خبرة . سأطبخ له ، وسأطالبه بثلاثة روبلات شهريا مقابل سكنه وأكله .

وبعد استفهام طويل علمت بأن رجلا متقدما فى السن قد اقنع أجرافينا بطريقة ما على إدخاله المطبخ كساكن ومؤاكل .

لا بد من تنفيذ كل فكرة تعن لأجرافينا ، والا فلن يسود الهدوء والسكينة البيت . وإذا لم تسر الامور حسب هواها ، سيطر عليها الحزن ، وشرد ذهنها ، وتستمر على هذا الحال أسبوعين أو ثلاثة . وفى هذه الأوقات ، يكون الأكل رديئا ، ويضيع الغسيل ، وتبقى الغرف من غير تنظيف ؛ وفى كلمة واحدة يكون كل شيء رديئا كريها . لقد لاحظت منذ وقت بعيد أن هذه المرأة الصامتة لا تستطيع التفكير أو تقرير أى شيء ، أما إذا وضعت فكرة ما فى عقلها الضعيف فمن الخطأ عدم تنفيذها لأن ذلك يعنى القضاء عليها نفسيا . وبما أننى أحب الهدوء والسكينة أكثر من أى شيء آخر ، فقد وافقت على اقتراحها .

- هل لديه أوراق قانونية ، جواز سفر أو أى شيء آخر ؟

- بالطبع ! أنه رجل طيب ، رجل ذو خبره . وعد بدفع ثلاثة روبلات .

وفى صبيحة اليوم التالى ظهر الساكن الجديد فى بيتى العزبى المتواضع ؛ فلم انزعج لذلك بل سررت . كان من طبعى أن أحيا حياة عزلة وانفراد ، فليس لى أصدقاء ، وقلما أخرج وقد اعتدت هذه الحياة بعد أن أمضيت عشر سنوات لا أخرج من قوقعتى . الا أن فكرة معيشه

عشر سنوات أخرى أو أكثر فى هذه الحياة المنعزلة وبرفقه أجرافينا وفى نفس المنزل ، تعد فكرة كئيبة. لهذا فرفقه شخص جديد لن يتعبنى، كانت نعمة عظيمة .

ولم تكذب أجرافينا ، فالرجل حقا كان ذا خبرة . لقد كان جنديا فى يوم من الأيام كما دل جواز سفره ؛ وكان على أن أعرف هذه الحقيقه من النظرة الأولى إلى وجهه ، فمن السهل معرفة الجندى السابق .

كان أستافى أفانوفيتش رجلا طيباً ، فعشنا سويا على أحسن مايرام . والأفضل من كل هذا أن أستافى أفانوفيتش كان فى بعض الأحيان يقص على بعض الأحداث التى مرت عليه . فكان هذا الراوية كنزا لا يقدر فى جو السأم والضجر الذى أعيش فيه . وفى أحد الايام قص على قصة من قصصه أثرت فى نفسى ، وكان الداعى لذلك الحادثة التاليه :

كنت وحيداً فى البيت ، فقد خرج استافى وأجرافينا ليقضى كل منهما أعماله الخاصة . وفجأة سمعت وقع أقدام فى الغرفة الداخليه ، فتوقعت بأن يكون الداخل غريباً . وذهبت لأرى ؛ فلم يخطىء حدسى . كان يقف فى الممر رجل غريب ، قصير ، لبس عليه معطف مع أن البرد الخريفى كان قارساً .

ـ ماذا تريد ؟

ـ هل يقطن هنا موظف يدعى الكسندروف ؟

ـ لا يقطن هنا أحد بهذا الاسم أيها الأخ ، مع السلامة .

ـ لكن البواب قال لى بأنه يعيش هنا .

وانسحب الزائر فى حذر نحو البواب .

ـ هيا أخرج أيها الأخ

وبعد ظهر اليوم التالى ، حين كان أستافى افانوفيتش يقيس لى معطفاً من معاطفى كان يصلحه ، دخل شخص إلى الممر ، ففتحت الباب نصف فتحة :

أخذ زائر اليوم السابق معطفى الشتوى عن المسمار ووضعه أمام عيني تحت ابطه فى هدوء ورصانة ثم اندفع خارجا من البيت . وقفت أجرافينا طيلة الوقت تنظر الى فاغرة فاها من الدهشة ، ومن غير أن تفعل شيئا للمحافظة على معطفى . واندفع استافى لاحقاً باللص ، وعاد بعد عشر دقائق خالى اليدين يلهث . لقد اختفى اللص .

ـ حظ سيء يا أستافى افانوفيتش . لكنه عمل طيب حين ترك معطفك يا أستافى والا لأوقعنا الوغد فى ورطة !

وكان تأثير السرقة عظيما على أستافى أفانوفيتش إلى حد أننى نسيت كل شيء عنها حين نظرت اليه ، ببساطة ، لم يستطع التغاضى عنها . وكل دقيقة أو اثنتين كان يلتى بعمله جانباً ويشرح مرة أخرى كيف حدث كل شيء ، كيف كان واقفا ، كيف أخذ المعطف أمام عينيه ، على بعد باردة ، وكيف عجز عن إلقاء القبض على اللص . ويلتقط عمله ، ويلقى به مرة أخرى . وأخيراً رأيته ينزل إلى البواب ، يشرح له ما حدث ، ويوبخه لسماحه بحدوث مثل هذه الأشياء فى عمارته . وعاد فوبخ أجرافينا . ثم جلس إلى عمله يغمغم لنفسه كيف حدث كل شيء ، كيف كان يقف هناك ، وأنا هنا ، وكيف سرق المعطف أمام أعيننا على بعد باردة .. الخ وفى كلمة واحدة كان أستافى أفانوفيتش ثرثاراً ، كثير الكلام وان يكن ماهراً فى عمله .

قلت له فى المساء ، وأنا أعطيه قدحاً من الشاى :

ـ لقد ضحك منا يا أستاذى أفانوفيتش .

كنت أود إضاعة الوقت فى إعادة تفاصيل قصة سرقة المعطف ؛ فإعادتها المستمرة وحماس المتكلم المتزايد مسليين للغاية .

ـ أجل ضحك منا يا سيدى ! فأنا لا أستطيع نسيان الأمر مع أن المعطف ليس لى . ان ذكراه تجننى . لا يوجد ، فى رأى ، حشرة أقذر من اللص . من الممكن أن يأخذ شخص ما تستطيع الاستغناء عنه ، أما اللص فيسرق عملك ، عرق جبينك ، ووقتك . أخ ! انها قذاره لا يستطيع الإنسان وصفها ؛ انها تغيظ ! كيف لا تشعر بضياع ملكك ياسيدى ؟

ـ انك على حق يا أستاذى افانوفيتش . لو حرقت المعطف لكان أفضل ، أما أن يأخذه لص . . . فذلك يغيظ . . . انه كريه !

ـ حقاً ياسيدى انه يغيظ . ولكن بالطبع توجد أنواع من اللصوص يا سيدى ـــ لقد قابلت فى إحدى المرات لصاً شريفاً .

ـ ماذا تعنى شريفاً ؟ كيف يمكن للص أن يكون شريفاً يا أستاذى أفانوفيتش ؟ !

ـ حقاً يا سيدى ، لا يوجد هناك شىء كلص شريف . ما عنيته هو أن الرجل بدا شريفاً ولكنه سرق . لقد تأسفت لذلك .

ـ ماذا حدث يا أستاذى افانوفيتش ؟

ـ كان ذلك قبل سنتين يا سيدى . وكان قد مضى على عام وأنا عاطل بلا عمل . تعرفت وأنا فى عملى السابق على انسان مسكين ، ضل الطريق . تعرفت عليه فى احدى الحانات ، كان سكيراً ، متشرداً وشحاذا .

وكان فى يوم من الأيام موظفاً فى الحكومة ، الا أنه فقد وظيفته بسبب إدمانه على الخمر . لم يكن هناك رجل عديم القيمة مثله . ولا يعلم إلا الله ما كان يستر به جسده . وكثيراً ما كنت تشك فيما إذا كان يلبس قميصاً تحت معطفه ؛ وكان ينفق كل مليم معه على الشراب . ومع ذلك لا أذكر أنه لجأ إلى الشجار مرة واحدة ، بل كان هادئاً ليناً ، طيب القلب ، يخجل من السؤال ، إلا انك كنت تشعر أن الرجل يريد كأسا فتقدمها له . وهكذا أصبحنا أصدقاء ، أو بالأحرى تعليق هوى . . . فلم أمانع ! يا له من رجل غريب الأطوار ! لقد كان يتبعنى ككلب صغير . فبعد مقابلتنا الأولى كنت أجده فى كل مكان أذهب اليه . كان هزيلا رفيعاً كالخيط . وفى بادىء الأمر لم تتعد علاقتنا هذه الكلمات : « دعنى أنام هذه الليلة » فتركته يقضيها .

ونظرت إلى جواز سفره ، فرأيت أن كل شىء على مايرام .

وفى اليوم التالى أعاد نفس القصة ، وأتى فى اليوم الثالث فقضى طيلة نهاره فى النافذة ثم نام ليلته .

وفكرت ، لقد التصق بى ، مالى وله أطعمه وأسقيه وأنيمه ؟ انى رجل فقير على أن أعول نفسى ! وقبل أن يأتى الى كان يذهب بنفس الطريقة الى أحد موظفى الحكومة ؛ وكان ملتصقاً به ، يشربان دائماً سويا ، لكن الموظف أدمن الخمر ومات بعد فترة قصيرة . كان الرجل يدعى ايميليان اليتش . وفكرت . . . عما أفعل به . وخجلت لمجرد التفكير فى طرده ؛ لقد كنت حزيناً لحالة هذا المسكين الضال . لم يكن يطلب شيئا بل يجلس فى صمت ينظر الى عينيك كالكلب . كان مثلا حيا لما تصنعه الخمر .

وجلست أفكر كيف سيستقبل المسكين نبأ طرده . ماذا سيفعل حين أقول له :

« انني رجل مسكين يا ايميليا ، ولا يمكنني اعالتك ، فقد أسأت الاختيار . سيأتي اليوم الذي لن أجد فيه ما أترمق به ، فكيف تريدني أن أساعدك ؟ هيا ارحل يا صاحبي ! »

وتصورته وهو يحملق في . وتساءلت كم من الوقت سيجلس في النافذة لا يعي ما أقول . وكيف سينزل عن النافذة حين يفهم فيأخذ صرته الملفوفة بمنديل أحمر كبير ممتلىء بالثقوب ، والتي لم تفارقه أبداً ، وكيف سيصلح من شأن معطفه البالي ليظهر محترما وليدفئه — وحتى لا تظهر خروقه — لقد كان رقيق العواطف . وكيف سيفتح الباب ثم ينزل السلم والدموع تترقرق في مآقيه . تصورت كل ذلك ... بل خيل لي بأنني أراه أمامي . لكنك لا تقدر أن تقضي على رجل هكذا ، فإنك ستشعر بالحزن . . .

ومرة أخرى قلت في نفسي : انتظر برهة يا ايميليا ، فلن تحتفل كثيراً معي سأذهب بعد قليل ولن أعود .

وفعلا ذهبت يا سيدي . لقد قال لي سيدي الكسندر فيليبوفيتش (توفي منذ زمن ، رحمه الله) : « انني مسرور من عملك يا أستاذي ، ولن أنساك حين نعود من الريف فسأستخدمك ثانية . »

لقد كنت ساقيا عنده ، وكان سيداً طيبا لكنه توفي في نفس السنة .

وحين ودعت سيدى وهو ذاهب إلى الريف ، حملت متاعى وملابسى ، وبعض النقود التى ادخرتها لمثل هـذا اليوم وقلت فى نفسى : ستستريح بعض الشىء يا أستافى .

وذهبت لرؤية امرأة أعرفها ، فاستأجرت غرفة فى نزلها ، الغرفة الوحيدة الخالية . لقد كانت ممرضة فى أحد الأيام ، أما اليوم فلديها نزلا وغرفة خاصة بها ، وقلت فى نفسى : حسنا ، وداعا ياعزيزى إيميليا لن ترانى مرة أخرى يابنى .

وماذا تظن ياسيدى ؟ خرجت لرؤية رجل أعرفه ، وحين عدت فى المساء وجدت إيميليا أمامى ! كان يجلس هناك على صندوقى وصرته بجانبه ، مرتديا معطفه المهلهل ينتظرنى . وإيقطع الوقت استعار من السيدة كتاباً كنائسى أمسكه بالمقلوب . لقد وجدنى أخيراً ! وتدلت يداى فى خيبة أمل ، وقلت فى نفسى : حسنا ، لايوجد شىء تستطيع عمله — ولكن لماذا لم تطرده منذ البداية ؟

وسألته للتو : هل أحضرت جواز سفرك يا ايميليا ؟

وجلست فى مكانى ياسيدى ، وابتدأت أفكر ، هل سيتعبنى كثيرا هذا المتشرد ، وظهر لى بعد تقليب الأمر أنه لن يتعبنى . ولكن يجب إطعامه . وفكرت للمرة الثانية ، إن كسرة خبز فى الصباح وبصلة لتساعده على جفاف الخبز ستقضى الحاجة ، وعند الظهر سأعطيه كسرة خبز أيضا ،وفى المساء بصله أخرى مع بعض «الكفاس»[1] وإن أراد ،

---

(١) الكفاس شراب يشبه البيرة يصنعه فلاحى روسيا من تخمير الشعير — المعرب

بعض الخبز . أما إذا توقعنا على بعض حساء الكرنب سيكون حظنا حسنا . وأنا ياسيدى ، لست إ كيلا ، والسكير كما تعلم لايأكل كثيرا ، كل مايريده هو الفودكا والكونياك . لكنى فكرت بشرابه ، وقلت فى نفسى : أنه سيدمرك بشرابه هذا .

وخطرت لى فكرة استحوذت على تفكيرى . أن حياتى ستفقد كل معنى لها إذا ذهب ايميليا . . . لذا قررت فى الحال أن أكون أبا وولى أمر له . وفكرت أنه يجب على أن أحول بينه وبين الدمار ، يجب أن أمنعه من الشراب . انتظر برهة وسترى . وقلت له : حسنا يا ايميليا يمكنك البقاء لكن عليك أن تحسن التصرف وتطيع الأوامر .

وفكرت : سأبتدىء بتعليمه أن يعمل شيئا ، ولكن ليس دفعة واحدة . فلتمرح الآن بعض الشىء بينما أبحث أنا وأجدلك عملا يناسبك يا ايميليا .

إنك تعلم ياسيدى أن الرجل يحتاج الى قدرة خاصة لكل عمل . وابتدأت أراقبه فى صمت . وسرعان ما اكتشفت أن ايميليا شخصية يائسة . فابتدأت ، ياسيدى ، ببعض النصائح ، وقلت له هذا . . وذاك .

قلت له : ايميليا يجب عليك أن تفكر وتغير اتباعك . اترك الخمر ! أنظر الى الأسمال التى تسير بها ، الى معطفك القديم ، أنه لايصلح إلا غربالا ، يالها من حالة لطيفة ! ؟ لقد حان الوقت لتقرر .

هل تصدق ياسيدى ؟ لقد جلس ايميليا يصغى الى مطأطىء الرأس . وصل إلى مرحلة فقد فيها كل القدرة على التفكير السليم وبالتالى الكلام السليم ، كله عن الخيار وسيجيبك عن الفاصوليا ! كان يصغى الى . . . ويصغى . . . ثم يتنهد فى حرقة .

« لماذا تتنهد يا ايميليان اليتش ؟ »

« آه ! لاشيء لاتهتم بى يا استافى افانوفيتش . هل تعلم لقد تقاتلت امرأتان فى الشارع يا استافى افانوفيتش ، وقلبت إحداهن سلة توت الأخرى عفوا . »

« حسنا ! وما فى ذلك ؟ »

« فقلبت الأخرى توت الأولى متعمده وسحقته تحت أقدامها . »

« حسنا ! وما فى ذلك يا ايميليان اليتش ؟ »

« ماذا ؟ لاشيء يا أستافى أفانوفيتش ، أننى ذكرتها هكذا . »

فقلت فى نفسى : انك ذكرتها هكذا ! أجل ايميليا يابنى لقد أضاعت الخمر صوابك .

« وهل تعرف يا أستافى أفانوفيتش ؟ لقد أوقع رجل بعض النقود على الرصيف فى شارع جورخوفايا ، كلا أعنى شارع سادوفايا . ورآها فلاح فقال : هذه من نصيبى . ورآها فى نفس الوقت فلاح آخر وقال : إنها من نصيبى لقد رأيتها قبلك . »

« حسنا يا ايميليان اليتش ؟ »

« وتقاتل الاثنان عليها يا أستافى أفانوفيتش . فأتى الشرطى وأخذ النقود منهما ، وأعادها الى صاحبها ، وهدد بأخذ الرجلين الى السجن »

« حسنا ! وما فى ذلك ؟ ما المهم فيه ؟ »

« ماذا ؟ لاشيء ، لقد ضحك الناس يا أستافى أفانوفيتش . »

« أخ ! يا ايميليان ! مالنا وللناس ؟ لقد بعت روحك بثمن بخس ! ولكن هل تعرف ماذا سأقول لك يا ايميليان اليتش ؟ »

« ماذا يا أستافى أفانوفيتش ؟ »

« يجب أن تعمل عملا هذا ما يجب عليك فعله . انى أقول لك للمرة المئة ابتدىء اعمل . ارحم نفسك ! »

« ولكن لا أعرف ما أعمل يا أستافى أفانوفيتش . انى لا أعرف شيئا . ولن يستخدمنى أحد يا أستافى أفانوفيتش . »

« لهذا لن يستخدمك أحد : للسبب الذى فقدت من أجله وظيفتك . بسبب الشراب يا ايميليا ! »

« وهل تعرف يا أستافى أفانوفيتش أنهم دعوا فلاس الساقى الى المكتب اليوم ؟ » فسألته لماذا دعوه ؟

« لست أدرى يا أستافى أفانوفيتش . ربما احتاجوه فطلبوا اليه الحضور . »

وفكرت : أخ ! لقد انتهى كلانا يا إيميليا ! إن المولى يعاقبنا لخطايانا ! ماذا أستطيع عمله بمثل هذا الرجل ؟

وكان إيميليا خبيثاً بلا شك . كان يصغى إلى ويصغى ... وأخيراً مل ذلك ، فأصبح يحمل معطفه القديم كلما شعر انى غاضب . ويخرج من غير أن يترك أثراً فيتجول طيلة النهار ويأتى ثملا فى الليل . وكان لا يعلم إلا الله من أين تأتيه النقود . . وعلى كل حال لم يكن لى يد فى ذلك .

فقلت له : « كلا يا إيميليان إلتش ، أنك تسير إلى الهاوية . أترك الشراب ، أصغ جيداً لما أقول . أتركه . باستطاعتك أن تنام عل السلالم إذا أتيت ثملا مرة أخرى . لن أفتح لك الباب ! »

أمضى إيميليا ، بعد أن سمع ماقلت، طيلة ذلك اليوم ، واليوم الذى تلاه فى البيت ، إلا أنه عاد إلى الخروج فى اليوم الثالث . وانتظرت عودته ، وانتظرت بلا طائل . يجب أن اعترف بأنى انزعجت لغياب الرجل - وفكرت محاولا معرفة ما فعلت له . بلاشك لقدأخفته ؛ ولكن أين ذهب المسكين الآن ؟ أنه هائم على وجهه بلا شك . اللهم ارحمنا !

وأتى الليل ، ولم يعد . وخرجت فى الصباح إلى الفناء فوجدته هناك !كان نائما على السلالم ، وقد ازرق جسده من البرد !

« بحق السماء ما الذى تفعله هنا يا إيميليا ؟ ما هذا ؟ »

« ماذا ؟ إنك . . . إنك غاضب منى منذ أيام ، وثرت فوعدتنى أن أنام على السلالم إذا شربت مرة أخرى . وخفت أن أدخل . . . فنمت على السلالم يا أستاذى أفانوفيتش » .

وتملكنى الحزن والغضب على هذا الرجل ، فقلت له :

« حقا يا إيميليان اليتش ، يجب عليك أن تقوم بعمل آخر بدلا من النوم فى الخارج لتحرس السلالم ! » .

« أى . . أى عمل آخر يا أستاذى أفانوفيتش ؟ »

واستبد بى الغضب فقلت له : « يالك من نفس ضالة ! يمكنك تعلم الحياكه . أنظر إلى معطفك . ألا يكفى أنه أسمال ، فهل يجب أن تمسح به السلالم ؟ ! امسك ابرة وخيطا وارقع أسمالك لتظهر بمظهر محترم ، أيها السكير ! »

وماذا تظن ياسيدى ؟ لقد ذهب فعلا وأحضر إبرة ثم خلع معطفه وجلس يحاول إدخال الخيط فى خرم الابرة . فراقبته فى صمت . وكما تستطيع أن تتخيل ، كانت عيناه حمرة ، ويداه ترتعش . وحاول . . .

وحاول... إلا أنه فشل ؛ فرك عينيه ، وبل الخيط ، وحاول مرة أخرى ففشل ، وتخلى عن المحاولة ونظر إلى .

فقلت له : « حسنا يا إيميليا ، لو كان هناك بعض الشهود لحطمت رأسك ! ما هذا ؟ لقد قلت لك ذلك لتشعر بصغر نفسك . . بحق السماء أترك الابرة واجلس هادئاً هناك ، ولا تعود إلى مثل هذه الأعمال فتعرنى بنومك على السلالم ... ! »

« ولكن ماذا فى استطاعتى يا أستاذى أفانوفيتش ؟ أننى أعرف تماماً أنى حيوان سكير وأننى لا أصلح لشىء ! لقد أزعجتك بدلا من أن أقابل إحسانك . . . . »

ولوى فمه ، وزم شفتيه الزرقاء فى عصبية ، وانهمرت الدموع على خده الأبيض ، وانفجر إيميليا باكياً . . يا للسماء ! وشعرت أن خنجراً قد أغمد فى صدرى . ياله من إنسان حساس ! لم أكن أتوقع منه ذلك ! من كان يتصور هذا ؟ ففكرت : كلا يا إيميليا سأتركك نهائياً ، ويمكنك أن تعيش فى القذارة إلى قمة رأسك .

وما فائدة الإطالة يا سيدى ، أن الحادث تافه لا يستحق الكلام فيه . والحق لو أنك رأيته لما أعرته أدنى إهتمامك . ولكن أنا . . . لأعرته الكثير من وقتى - إن كان لدى الكثير - حتى لا يحدث ماحدث .

كان لدى سروال ركوب من أجود الأنواع . فصلته من قماش أزرق لأحد سادة الريف ، فرفض أن يأخذه مدعيا أنه ضيق ، وبقى لى . وخطر لى خاطر : لماذا لا أبيعه لتاجر الملابس المستعملة ؟ فبإمكانى الحصول على خمسة روبلات فضية ، وإن لم أستطع فبامكانى

تفصيل سروالين منه وبيعهم لسادة بطرسبرج . وتزيد قطعة فأفصلها صدريه لى . فأنت تعلم يا سيدى أن الفقراء أمثالى لايستطيعون التفريط فى شىء . .

وكان إيميليا حزينا فى هذه الفترة ـ كان يجلس فى النافذة يوما بعد يوم من غير أن يشرب قطرة واحدة من الخمر ؛ ولكنه كان يجلس فى بلادة البوم . فشعرت بالحزن لرؤيته يقبع طيله اليوم فى مكانه لا يفعل شيئا سوى التفكير . وقلت فى نفسى : أما أنك لا تملك مليما تنفقه يا إيميليا ، أو أنك ابتدأت صفحة جديدة ، فتركت الشراب وحكمت عقلك .

وهذا ما حدث لنا يا سيدى :

أقبل علينا العيد ، فخرجت للصلاة فى المساء ، وحين عدت وجدت إيميليا جالسا فى النافذة يتمطوح ذات اليمين وذات الشمال . ففكرت : آه ! هذا ما فعلته يا بنى !

وذهبت لأحضر شيئا من الصندوق ، فلم أجد السروال ... وبحثت فى كل مكان ، إلا أنه كان قد اختفى ؛ وشعرت بشىء يغمد فى قلبى . وهرولت فى بادىء الأمر الى المرأة العجوز اتهمها بسرقته ؛ ولم يساورنى أدنى شك فى إيميليا ، مع انه كان يجب أن يساورنى لجلوسه ثملا .

فقالت العجوز : « كلا ، يرعاك الله يا بنى . وماذا أريد بسروال ركوب ؟ هل سألبسه ؟ لقد فقدت ثوبى منذ أيام بواسطة رجل مثلك ... لست أعرف عن سروالك شيئا ، وليس باستطاعتى أن أخبرك شيئا . »

فسألتها فى جنون : « من كان فى غرفتى ؟ من دخلها ؟ »

قالت : « لم يدخلها أحد أيها الرجل الطيب . لقد كنت هنا طيلة الوقت ؛ خرج إيميليان اليتش ثم عاد ؛ وها هو جالس هناك فاسأله . »

وصحت : « ايميليا ! هل أخذت سروال ركوبى ؟ السروال الذى فصلته للرجل من الريف ، انك تذكره جيداً . »

« كلا يا أستاذى افانوفيتش ، لم ألمسه . »

وكنت فى حالة لا أحسد عليها ، فرحت ابحث فى كل مكان — ولكن من غير جدوى . وايميليا كان يجلس فى مكانه يهتز ذات اليمين وذات الشمال . ربضت بجانب الصندوق ثم نظرت فجأة إلى ايميليا . . ليرحمنا الله ! وشعرت بالثورة تتأجج فى صدرى واحمر وجهى ، فنظر ايميليا إلى وقال :

« كلا . . . كلا لم آخذ سروالك . . . يا أستاذى افانوفيتش . . . ربما فكرت أننى فعلت . . . ولكن لم آخذه ! »

« ولكن ماذا حدث له يا ايميليان اليتش ؟ »

« كلا يا أستاذى افانوفيتش . انى لم أره . »

« أظن يا ايميليان اليتش أنه خرج من البيت لوحده . ايه ؟ »

« ربما يا استاذى افانوفيتش »

وحين سمعت ذلك نهضت ، فذهبت إلى النافذة ، وأضأت المصباح ، وجلست إلى عملى . كنت أصلح صدرية موظف الحكومة كان يقطن اسفل البيت . وكانت الثورة تتأجج فى صدرى طيلة الوقت وبلا شك كنت أفضل لو اننى وضعت كل ما أملك فى النار . . . أما أن يسرق منى شيئاً . . . وشعر ايميليا بغضبى . والمذنب يا سيدى ، كما تعلم ، يشعر بالغضب وهو على بعد ، كالطيور التى تشعر بالعاصفة قبل هبوبها .

فسألنى ايميليا بصوت مرتعش : « هل تعلم يا أستاذى افانوفيتش ؟ لقد تزوج انتيب بروخوريتش الذى يعمل فى المستشفى اليوم أرملة الحوذى الذى توفى الأسبوع الماضى . »

ونظرت اليه فى غضب ، ففهم ايميليا . ورأيته ينهض ، فيذهب إلى السرير ويبحث عن شىء ما . وانتظرت — فشغل نفسه بالبحث فترة من الوقت وهو يغمغم : كلا ، ليس هناك . أين ذهب . وانتظرت لأرى ماذا سيفعل ، فرأيته يزحف تحت السرير ، ولم أستطع تحمل أكثر من ذلك ، فقلت له :

« لماذا تزحف تحت السرير يا ايميليان اليتش ؟ »

« أبحث عن السروال يا أستاذى افانوفيتش . ربما سقط هناك . »

« لماذا تكلف نفسك عناء مساعدة رجل مسكين مثلى ؟ ! لماذا تزحف على ركبتيك من غير طائل ؟ .

« لا بأس يا أستاذى افانوفيتش ، انى سأنظر . ربما وجدته . »

فصمت : « هم ! انظر إلى يا ايميليان اليتش ! »

قال : « نعم يا أستاذى افانوفيتش ؟ »

« ألم تسرقه منى مثل اللص جزاء الخبز والملح الذى اطعمتك اياه ؟ ! »

لقد تملكنى الغضب لرؤيته يضللنى بزحفه .

« كلا يا أستاذى افانوفيتش »

وبقى ناتئاً على بطنه تحت السرير كما كان . ونام فترة طويلة ثم خرج . ونظرت اليه فرأيت وجهه أبيضا كالثلج . ونهض فجلس بجانبى فى النافذة ، وصمت ما يقرب من عشرة دقائق .

ثم نهض فاقترب منى وقال : « كلا يا أستافى . . . كلا يا أستافى أفانوفيتش أننى لم ألمس سراويلك . »

انني أتخيله الآن وهو ينظر الى فى رعب . كان يرتجف من رأسه الى أخمص قدميه . يشير الى صدره بأصابع مرتعشة ، وصوته متحشرج . فاضطربت لرؤياه على هذه الحال ياسيدى ، وجلست فى مكانى كأنى زرعت فى النافذة .

قلت: « حسنا يا ايميليا . أرجوك أن تصفح عنى إذا كنت قد اتهمتك بلا حق وأنا غاضب . أنسى كل شىء عن السراويل ، فباستطاعتنا أن نعيش بدونها ، الحمد لله لازالت لدينا أيادينا . فلن نحتاج لسرقة أوسؤال رجل مسكين آخر ، بل سنكسب خبزنا بعرقنا وكدنا . »

سمع ايميليا كلامى ، وهو واقف أمامى بلا حراك ، ثم جلس . جلس طيلة المساء ، وحين ذهبت الى فراشى كان لايزال جالسا فى مكانه . ووجدته فى الصباح نائماً على الأرض وقد تكور فى معطفه البالى ، لقد كان فى حالة نفسية لم يستطع معها النوم فى الفراش .

ومنذ ذلك اليوم بدأ حبى لذلك الرجل يموت ، وفى الواقع لم أحتمل رؤيته فى بادىء الأمر . كنت كمن سرقه ابنه ؛ لقد أخذ الألم منى مأخذا عظيما وقلت فى نفسى ! أخ ! ايميليا ! ايميليا ! .

واستمر ايميليا يشرب طيلة اسبوعين من غير انقطاع . لقد كان ثملا طيلة الوقت . كان يذهب فى الصباح ويعود متأخراً فى المساء . وطيلة الأسبوعين لم أستطع محادثته ، على ما أعتقد كان الحزن قد أخذ منه مأخذاً عظيما فأراد أن يهرب من نفسه .

وأخيراً توقف عن الشراب ، لقد أنفق كل ما معه ، فجلس فى النافذة مرة أخرى . أننى أذكر أنه جلس هناك ثلاثة أيام بلياليها من غير أن يتكلم ؛ وفجأة رأيته يبكى من الهم والشقاء . كان يجلس فى مكانه والدمع ينهمر على خديه كأنه لا يشعر به . أن رؤية رجل كبير يبكى تحزنك ياسيدى .

فقلت له : « ماذا دهاك يا ايميليا ؟ »

وابتدأ يرتعش من رأسه إلى أخمص قدميه . كانت هذه هى المرة الأولى التى أكلمه فيها بعد الليلة المشؤمة .

قال : « لا شىء يا أستاذى أفانوفيتش . »

« رعاك الله يا ايميليا . الذى ضاع ضاع . فلماذا تبكى هكذا ؟ »

لقد شعرت بالأسف والحزن عليه .

« آه ... لاشىء ياأستاذى أفانوفيتش . لايوجد شىء — أود إيجاد عمل ما ، يا أستاذى أفانوفيتش . »

« وأى نوع من العمل يا ايميليا ؟ »

« أى نوع ... ربما وجدت عملا كعملى السابق . لقد اتصلت بفيدوسای ايفانيتش . لا أود ان أكون عبأ عليك ياأستاذى أفانوفيتش . فاذا وجدت عملا يا أستاذى أفانوفيتش سأدفع لك كل شىء . سأرد إليك بعضاً من كرمك . »

كفى يا ايميليا .. كفى ؛ دع الماضى يمضى ولا تتكلم عنه . ولنستمر فى حياتنا كما كنا نعيش فى السابق . »

« كلا يا أستاذى افانوفيتش . ربما فكرت أننى . . لكننى لم أمس سروالك . . . »

« كما تريد ، ليرعاك الله يا إيميليا »

« كلا يا أستاذى أفانوفيتش . أننى لا أستطيع الاستمرار فى المعيشة معك . إن ذلك واضح . يجب أن تغفر لى يا أستاذى افانوفيتش . »

« لماذا لاتقدر على الحياة معى يا ايميليان اليتش رعاك الله ؟ من الذى أغضبك أو طردك - هل فعلت أنا ذلك ؟ »

« كلا لم تفعل ذلك ، ولكنه ليس من اللائق أن أعيش معك هكذا يا أستاذى أفانوفيتش . من الأفضل أن أمضى . »

لقد كان متألماً ، فتشبث برأيه . ونظرت اليه . فنهض من مكانه وارتدى معطفه فقلت له :

« ولكن الى أين ستذهب يا ايميليان اليتش ؟ حكم عقلك : ماذا تريد ؟ ما الذى فى رأسك ؟ »

« كلا . وداعا يا أستاذى أفانوفيتش . لا تؤخرنى » - ومرة أخرى انهمرت دموعه فتابع قائلا : « الأفضل أن أمضى . فأنت لست كعادتك . »

« لست كعادتى ؟ ! إننى كعادتى . لكنك ستضل يا ايميليان اليتش كطفل صغير . »

« كلا يا أستاذى أفانوفيتش . انك تغلق صندوقك بالمفتاح كلما خرجت ؛ وذلك يحز فى نفسى . دعنى أذهب ، واغفر لى كل التعب الذى كبدتك اياه . . »

وذهب الرجل ياسيدى . وانتظرت يوما ؛ كنت أتوقع قدومه فى المساء ـ لكنه لم يعد . ولم أر له أثرا فى اليوم الثانى والثالث . فاضطربت، ولم أستطع أن آكل أو أشرب أو حتى أنام . وفى اليوم الرابع ، ذهبت إلى الحانات أسأل عنه فلم أجده ـ لقد اختفى ايميليا . وابتدأت افكر : ايميليا ، هل استطعت أن تحافظ على حياتك ، أم إنك تنام الآن ميتا تحت سور ما ككلب نافق . ياللسكير المسكين !

وعدت إلى البيت نصف حى . وفى اليوم التالى خرجت أبحث عنه مرة أخرى . وعنفت نفسى طيلة الوقت لحماقتى وتركى الرجل يذهب هكذا . وكان اليوم الخامس عطله . وفى الصباح الباكر سمعت الباب يفتح ، فنظرت ، وهناك كان يقف ايميليا . وجهه أزرق ، ورأسه مغطى بالقاذورات كمن نام فى الشارع ؛ لقد كان هزيلا كعود ثقاب . نخلع معطفه القديم وجلس على الصندوق ثم نظر إلى . لقد كنت مسرورا لرؤيته ، إلا إننى كنت مضطربا عليه أكثر من ذى قبل ، وآلمنى أن أراه على هذه الحاله ، فجعلت أواسيه وأحادثه بلطف واعتنى به .

« حسنا ياايميليا . إننى مسرور لعودتك . فلو أنك تغيبت أكثر لخرجت اليوم أيضا للبحث عنك فى الحانات . هل أنت جائع ؟ »

« كلا يا أستاذى افانوفيتش »

« حقا ، هل أنت جائع ؟ لايزال هناك بعض حساء الكرنب ترك من الأمس ، فيه بعض اللحم ؛ إنه لذيذ . وهاك بعض الخبز والبصل . هيا كُله . إنه لن يضرك . »

وأطعمته اياه ، فلاحظت لأول وهله أن الرجل لم يذق الطعام

مايقرب من ثلاثة أيام — لقد كان جائعا كالذئب . إذا لقد أعاده الجوع . وتحطم قلبى وأنا أنظر الى المسكين . وقلت فى نفسى : سأذهب الى الحانة وأحضر له مايرفه به عن نفسه ، ثم ننهى كل شىء . إننى لست غاضبا عليك ياايميليا . وأحضرت له شيئا من الفودكا وقلت له :

« هاك يا ايميليان اليتش نشرب نخب العطله — هل تريد كأسا ؟ إنها ستفيدك »

فمد يده ، مدها فى لهفه . وحين أخذ الكأس توقف فجأه . ولكنه وضعها على شفتيه بعد أخذها بدقيقة . وعاد فأبعدها عن شفتيه ، ووضعها على المائدة .

« ماذا حدث يا ايميليا ؟ »

« لا شىء يا أستافى افانوفيتش ، إننى . . . »

« الن تشرب ؟ »

« أجل يا أستافى افانوفيتش . إننى لن أشرب ... مرة أخرى »

« هل تعنى أنك تركت الشراب يا ايميليا ، أم إنك لاتريد الشراب اليوم ؟ »

لم يجبنى . وبعد دقيقة رأيته يضع رأسه بين يديه فقلت له :

« ماذا حدث يا ايميليا ؟ هل أنت مريض ؟ »

« أجل يا أستافى افانوفيتش ، إننى لست على مايرام . »

وحملته ووضعته على الفراش . ولاحظت أنه مريض حقا : لقد كان رأسه ساخنا ، وجسده يرتعش من الحمى ، وجلست بجانبه طيلة الوقت . وفى المساء ساءت حالته ، فمزجت له شيئا من الزيت والبصل والكفاس

وبعض كسر الخبز .

وقلت له : « هيا كل شيئا من هذا ، ربما تحسنت حالتك . »

فهز رأسه فى اعتراض وقال : « كلا . لن أتعشى هـــذا المساء يا أستاذى افانوفيتش . »

وعملت له قدحا من الشاى ؛ وانهكت العجوز من العمل ــ لكنه لم يتحسن ، فانزعجت كثيرا . وفى صبيحة اليوم الثالث ذهبت إلى أحد الأطباء يدعى كوستوبرافوف وكنت أعرفه حين طببنى وأنا فى خدمة عائلة البوسومياجين . وحضر الطبيب فألقى عليه نظرة وقال :

« إن حالته خطره . لم تكن هناك فائدة من إحضارى . ولكن إذا أردت فسأعطيه مسحوقا . »

ولم أوافق لأننى اعتقدت أنها حيلة من حيل الطبيب ، وأخيرا أتى اليوم الخامس .

كنت جالسا فى النافذة وعملى بين يداى ، بينما هو راقد أمامى يذوى فى بطء . وكانت العجوز توقد الفرن . وقلبى ينظر حزنا عليه كأننى أفقد أحد أبنائى . وكنت أعلم أن ايميليا كان يراقبنى . لقد رأيت الرجل ينظر إلى طيلة اليوم محاولا أن يقرر ، هل يقل لى شيئا أم لا .

وأخيراً نظرت اليه ، فوجدت عيونه تنطق بالبؤس . وظل ينظر إلى ، ولكن حين رآنى انظر اليه ، أنزل عيونه وقال :

« استاذى افانوفيتش ... »

« ماذا تريد يا ايميليا ؟ »

« إذا أخذت معطفى لتاجر الملابس المستعمله ، فماذا تظنه سيدفع

يا أستاذى افانوفيتش ؟ »

« لست أدرى كم سيدفع ، ربما دفع روبلا يا ايميليان اليتش . »

فى حين إننى لو أخذته لما دفع مليما واحدا ، بل لضحك منى لاحضار مثل هذه الأسمال ، ولكننى قلت ذلك لمواساته فقط .

« ولكننى كنت أفكر يا أستاذى افانوفيتش أنه دفع ثلاثة روبلات ؟ إنه مصنوع من القماش يا أستاذى افانوفيتش . فكيف سيدفع روبلا واحدا لمعطف من القماش ؟ »

فقلت له : « لست أدرى يا ايميليان اليتش . فإذا كنت تفكر فى أخذه يجب عليك أن تطالب بثلاثة روبلات . »

وصمت ايميليا فترة من الوقت ثم قال :

« أستاذى افانوفيتش ... »

« ماذا تريد يا ايميليا ؟ »

« بع معطفى حين أموت . لاتدفننى به . فأنا أستطيع النوم من غيره إنه شىء ذو قيمة وربما نفع . »

إننى لا أستطيع وصف الألم الذى أحدثه هذا الكلام فى نفسى . ورأيت أن الموت قد اقترب . وصمتنا فترة قصيرة . ومرت ساعة ، فنظرت اليه : كان لايزال ينظر إلى . وحين تقابلت أعيننا أنزل عينيه . فسألته :

« هل تريد أن تشرب بعض الماء يا ايميليا ؟ »

« اعطنى شيئا رعاك الله يا أستاذى افانوفيتش »

فأسقيته .

« شكرا يا أستافى افانوفيتش »

« هل تريد شيئا آخر ياايميليا ؟ »

« كلا ياأستافى افانوفيتش . لا أريد شيئا . ولكن أود .. أن .. »

« ماذا ؟ »

« اننى ... »

« ماذا تريد يا ايميليا ؟ »

« سراويلك ... لقد... لقد... أخذتهم أنا ... ياأستافى افانوفيتش . »

فقلت له : « حسنا ، ليسامحك الله يا اميليا . فارقنا فى سلام أيها المسكين النادم . »

وكنت اهتز ياسيدى ، والدموع تنهمر من عينى ، فابتعدت قليلا حتى لايلحظ ايميليا بكائى .

« استافى افانوفيتش ... »

فالتفت ، ورأيت أن ايميليا يريد أن يقول لى شيئا ؛ كان يحاول أن ينهض ، يحاول أن يتكلم ، ويغمغم بشىء ما . واحتقن وجهه فجأة ، ونظر إلى ... ثم رأيته يصبح ابيضا مرة أخرى ، يبيض أكثر فأكثر ... وخيل لى أنه غرق مرة واحدة .

ووقع رأسه ، وتنفس نفسا عميقا ، ثم صعدت روحه إلى بارئها .

انطون بافلوفيتش تشيخوف

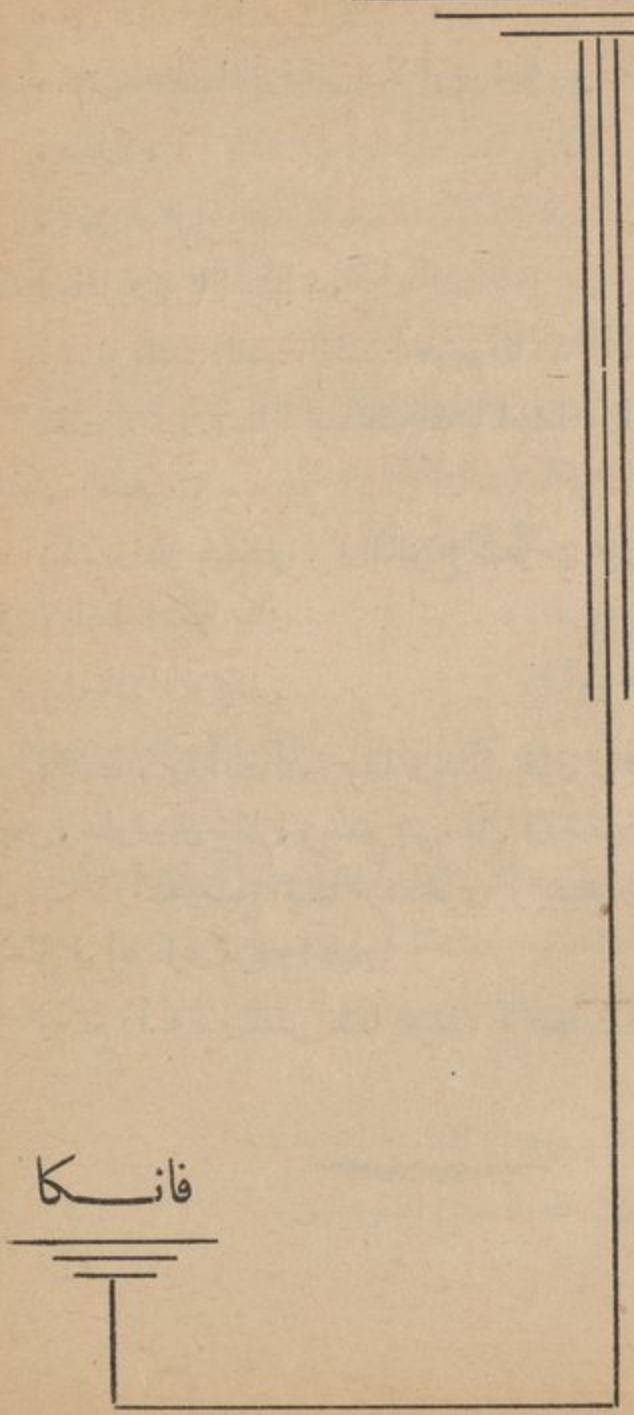

فانكا

انطون تشيخوف

ولد تشيخوف عام ١٨٦٠ فى مدينة تاغنروغ التى تقع فى أقصى بحر آزوف ، والتى كانت مسرحا لعدة معارك ابان الحرب الروسية الألمانية . وتوفى عام ١٩٠٤ ، أى قبل الثورة الروسية التى فشلت بعام واحد ، والتى كان لأدب تشيخوف أثر كبير فى تركيزها ، وزيادة وعى الشعب الروسى .

وكان جده لأبيه رفيقا للسادة تشرتكوف ؛ أما أبوه فقد تقلب فى الوظائف والأعمـــال حتى انتهى تاجرا . وكانت أمه تنتمى إلى أسرة عريقة فى التجارة .

وتشيخوف يعد عملاقا من عمالقة عصر النهضة الأدبية الروسية ، وهو طليعة جيل من الأدباء تأثر إلى حد كبير بتقدم العلوم والصناعة فاتجه الى القصة القصيرة بعد أن رأى أن القصة الطويلة لا تلائم روح العصر ولا تتفق مع التطور المبنى على أسس السرعة والعـــلم . فأصبح تشيخوف لا من أئمة القصة الروسية القصيرة فحسب ؛ بل القصة العالمية القصيرة .

ويمتاز تشيخوف عمن سبقه من أئمـــة الأدب الروسى أمثال دستويفسكى وترجنيف وجوجول وغيرهم ، بقدرته الغريبة على التحليل النفسى ، والوصول إلى أغوار النفس البشرية وتشريحها تشريحا صادقا حيا . مما يدل على فهم عميق واع للطبيعة الإنسانية .

ويرسم تشيخوف فى كتاباته صورة كاملة لمجتمعه ، ولكن لوحته مليئة بالأسى والكآبة . وشخصياته كلها أناس أرهقتهم الحياة والبؤس، وفى الغالب أنانيون فرديون ، لايعرفون معنى الأخوة والتضامن . « إنهم قوم تعتصرهم قبضة الحياة اليومية التى لايستطيع أى مثل أعلى ، وأية عاطفة مجردة ، مقاومة لها . » إن مؤلفات تشيخوف معرضا حيا للتشاؤم والاستسلام للمصير المحتوم .

وقصة الصبى « فانكا » صورة حيه لشخصيات تشيخوف البائسة المرهقـــة التى لا أمل لها فى الخلاص . . . كما أنها تظهر فهم تشيخوف العميق لنفسية الإنسان وتحليله الواعى الذى جعل من أدبه مدرسة عالمية للأدب الإنسانى الواقعى .

فانـــكا

فانكا جوكوف ، صبي صغير فى التاسعة من عمره ، مضت عليه ثلاثة شهور وهو يعمل أجيرا عند المعلم الياخين صانع الأحذية فى موسكو . لم يستطع فانكا النوم ليلة عيد الميلاد ، بل ظل يتقلب فى فراشه قلقا . وما أن ذهب المعلم وعائلته إلى الكنيسة مع الفجر ، حتى هب من فراشه وأخرج من خزانة معلمه دواة وريشة علاها الصدأ ، وضعها على المقعد بجانبه ، وشرع يكتب .

وقبل أن يخط الحروف الأولى فى رسالته ، نظر فانكا إلى الباب والنافذة فى وجل وخوف ، ورمق صورة العذراء بطرف عينه ، وأجال نظره فى رفوف الكتب التى وضعت على جانبى صورة العذراء ، وتنهد بحرقة شديدة .

وابتدأ يكتب :

« جدى العزيز كونستانتين مكاريتش : ها أنذا أكتب اليك هذه الرسالة لأهنئك بعيد الميلاد وأسأل الله أن يمد فى عمرك ، فأنت كل ماتبقى لى فى هذه الدنيا بعد أن توفيت أمى وأبى . »

وحول فانكا نظره إلى النافذة التى انعكس على زجاجها ضوء الشمعة المتراقص وسرح إلى الوراء حيث رأى فى مخيلته جـــده كونستانتين مكاريتش ، الذى يعمل حارسا ليليا عند السيد جيفاروف . وكان جده يبلغ من العمر الخامسة والستين ، قصير القامه ، ضامر الجسم ، لم تدب

الشيخوخة فى نشاطه بعد ، بل لازال نشيطا رشيقا ، دائم الابتسام . يقضى النهار نائما فى المطبخ أو مداعبا الطاهيات . أما فى الليل ، فيلتف بفروته الباليه ويدور حول المنزل ضاربا الأرض بعصاه ، يتبعه كلبان تقدمت بهما السن . أحدهما يدعى كاشتانكا ، والآخر فيون ، الذى سمى بذلك الاسم للونه الأسود القاتم ، وجسمه الطويل الذى يشبه إلى حد كبير ابن آوى .

وفيون هذا دقيق النظر ، قوى الملاحظة ، محبوب ، مدلل ، ذا سمعة طيبة بين أقرانه . إلا أنه يخبىء تحت كل هـذه الوداعة حقدا وجبنا غريبين ؛ ولايوجد من هو أبرع منه فى التسلل إلى مكامن الصيد حيث تكون حاسة شمه القوية قد ساقته ؛ وليس من هو أبرع منه فى التعلق بأرجل الناس وعضهم ، وسرقة دجاج الفلاحين . وكثيرا ماعوقب على أفعاله الشنيعة هذه ، حتى أنه كان يجلد أسبوعيا ، ثم علق مرتين من عنقه ، ومع ذلك كان ينهض فيون وكأن حادثا لم يحدث ! . . .

تخيل فانكا جده واقفا فى تلك الدقيقة عند باب المنزل منكمشا على نفسه من شدة البرد ، يضرب الأرض بقدميه فى شدة وعنف لعل الحرارة تسرى فى جسده ، ناظرا إلى أضواء الكنيسة والقرية بعيونه الضيقة وهو يداعب الطاهيات والخادمات وربما قرص إحداهن إمعانا فى المداعبة .

وتخيله فانكا وهو يخرج من جيبه علبة النشوق ويعرضها عليهن قائلا :

ـ هل أخذتن شيئا من النشوق ؟

وتشم النساء شيئا من النشوق ثم ينفجرن عاطسات . وهنا يضحك

جد فانكا كثيرا وهو يصيح ضاربا الأرض بقدميه فى شدة :

ـ أكاد أموت من البرد !

ثم يضع كونستانتين مكاريتش النشوق عند أنف الكلبه كاشتانكا التى تعطس بشدة ثم تلوى ذيلها بامتعاض وغضب وتبتعد ؛ بينما فيون يرفض أن يعطس ويحرك ذيله فى نشوة وسرور .

وكان الجو حينئذ جميلا ، لا تعكر الرياح صفوه ، بل تهب من وقت لآخر نسمات هواء ندية منعشة ؛ والسكون مخيم ، والظلام يلف القرية بين جنباته ، إلا أنك تستطيع رؤية أسطح المنازل البيضاء والدخان المتصاعد من مداخن البيوت المبعثرة فى دروب القرية وشعابها . وحبات الندى والصقيع المتجمدة على أوراق الشجر تلمع فى ضوء القمر فيحسبها الناظر وقد صبت من الفضة الخالصة ؛ والسماء تعج بالنجوم المتلألئة تتغامز فى سرور وغبطة ؛ والطريق ممتـــدة واسعة مكسوة بالصقيع ، بيضاء ناصعة فركت لتوها بالثلج .

وتنهد فانكا وهو يغمس ريشته فى المداد ، ثم تابع كتابته :

« لقد اقتادنى المعلم بالأمس إلى فناء المنزل وانهال على ضربا بالكرباج لأننى غفوت عفوا وأنا أهز طفله . وحدث فى الأسبوع الماضى أن طلبت معلمتى منى تنظيف سمكة لها ، فبدأت بتنظيف ذيلها مما أغضب معلمتى التى انتزعته من يدى ودست رأس السمكة فى فمى . أما إجراء المعـــلم فيهزأون منى ويرسلوننى إلى الحانة لأحضر لهم الفودكا ؛ ويطلبون منى سرقة الخيار من بيت المعلم الذى يضربنى بأى شىء يقع تحت يده ولأقل هفوة تبدر منى .

« وأخبرك ياجدى أن المعلم يجوعنى ، فالأكل قليل وردىء ؛ إذ يطعموننى فى الصباح خبزا ، ثم برغلا عند الظهر ، وخبزا فى المساء . وأنا لا أذوق الشاى أو حساء الكرنب اللذيذ المقصور على معلمى ومعلمتى .

« أما نومى ففى الممر حيث البرد والصقيع . وإذا حدث واستيقظ طفل المعلم فى الليل كان على أن أهز مهده حتى ينام .

« إنى استحلفك ياجدى العزيز بحق السماء ، وبكل عزيز لديك أن تأخذنى من هذا المكان الكريه ... إننى أتوسل إليك راكعا ... فأنا لم أعد أطيق الحياة هنا ... أعدك بالصلاة لك دائما إذا أخذتنى ... أما إذا بقيت فإنى سأموت ياجدى ... »

وهنا لوّى فانكا فمه ، وزم شفتاه بعصبية ، ثم مسح عيناه بيده القذرة وانفجر باكيا . وتابع كتابته :

« سأفرك لك ياجدى التبغ . وسأصلى لله أن يحفظك ، وإن خالفتك اضربنى كما تضرب الماشيه ؛ وإذا ظننت بأنى لن أجد عملا لديك فسأستحلف متعهد القرية أن يسمح لى بمسح حذائه ، أو سأرعى الغنم مع فيودا .

« أى جدى العزيز ، إنى لا أستطيع التحمل أكثر من هذا ... إننى على وشك الموت ... لقد فكرت فى الهرب من هذا المكان الفظيع ، إلا أن عدم وجود حذاء لدى يقينى صقيع الطريق منعنى من ذلك . خذنى ياجدى واعدك أنى سأتعهدك برعايتى وسأتكفل بمعيشتك حين أبلغ سن الرشد ؛ وحين تموت سأصلى لروحك تماما كما أصلى الآن لروح

أمى بيلاجيا .

« أما موسكو فهى مدينة كبيرة ، مليئة ببيوت السادة الفخمة ، وخيولهم الكثيرة ، ولكن لايوجد فيها خراف ، وكلابها وديعة لاتؤذى . إن أطفالها لايطوفون الأحياء ليلة عيد الميلاد يقرعون نواقيسهم ، ولا يسمح لهم بالاشتراك فى الغناء بالكنيسة .

« ورأيت مرة صنانيرا كثيرة وعصيها لصيد السمك ، معروضة للبيع فى واجهة إحدى المحلات التجارية ، وهى تصلح لصيد جميع أنواع السمك حتى تلك التى يتعدى وزنها رطلا . كما رأيت مخازنا تبيع البنادق والأسلحة ، كبندقية المعلم . وأغلب ظنى أن البندقية تكلف مالايقل عن مئة روبل . ورأيت فى دكان القصاب كثيرا من الدجاج والطيور البريه . والغريب أن القصاب رفض أن يقول من الذى اصطادها أو من أين أتى بها .

« وحين ينصّب ياجدى العزيز الساده شجرة عيد الميلاد ، أقطف لى منها جوزه مذهبه واحفظها فى صندوق الأخضر ، وأنا متأكد أن السيدة الصغيرة أولغا ايغناتيفنا لن تمنعك من ذلك إذا علمت أنها لفانكا .

* * *

تنهد الطفل مرة أخرى ثم نظر إلى النافذه وتابع ذكرياته . تخيل جده الذى اعتاد الذهاب إلى الغابة كلما حل عيد الميلاد مصطحبا فانكا معه . تخيل تلك الأيام الجميلة . يالها من أيام عذبه ! لقد كان يشعل غليونه ثم يشم بعض النشوق وهو يضحك من فانكا المتجمد من البرد .

والشجيرات الفتيه المكسوة بالصقيع تقف فى سكون وصمت حائر ، لا تدرى أيها ستكون الضحية . وفجأة يقفز أرنب برى مارا كالسهم فيصيح جده :

— امسكه ... امسكه ... آه ! يالذنب الشيطان .

ويلوح بيده وراء الأرنب .

وحين كان ينتهى جده من قطع الشجرة كان يجرها وراءه إلى بيت أسياده حيث يجتمع الكل حولها منظفين مزينين ؛ إلا أن القسط الأكبر فى تزينها كان يقع على أكتاف السيدة الصغيرة أولغا ايغناتيفنا ، صديقة فانكا العزيزة .

وخلال حياة أمه بيلاجيا التى كانت تعمل خادمة فى بيت السيد ، كانت السيدة أولغا ايغناتيفنا تعطف على الصبى فانكا فتملأ جيوبه بالحلوى ، وتعلمه القراءة والكتابة والعد حتى المئه ... والرقص أيضا . وحينما توفيت أمه حولت السيدة فانكا إلى المطبخ ليرعاه جده ... فأرسله الأخير إلى موسكو ليعمل عند المعلم الياخين .

وهنا توقف فانكا عن متابعة ذكرياته ليتابع كتابته إلى جده قائلا :

« أتوسل إليك بحق المسيح أن تحضر سريعا إلى موسكو ياجدى . ارحم حفيدك اليتيم الذى يضرب كل يوم ويكاد يموت من الجوع . إن الحزن يكاد يقضى على فأنا دائم البكاء .

« ضربنى المعلم منذ أيام بقالب الحذاء فوقعت على الأرض فاقد الوعى . ما أتعس حياتى ياجدى ... إنها أتعس من حياة الكلاب !

تحياتى إلى هيلينا وإلى يغور الأعور ، وإلى السائق ... وأرجوك

ألا تدع احد يأخذ مزمارى . إحضر ياجدى سريعا ! ودم لحفيدك المطيع : ايفان جوكوف . »

وهنا طوى فانكا الرسالة أربع مرات ووضعها فى مغلف كان قد اشتراه الليلة السابقة بكوبيك ، ثم غمس ريشته بالمداد وفكر قليلا قبل أن يكتب على المغلف :

« القرية : إلى جدى . »

وحك فانكا رأسه وفكر طويلا ثم كتب : « كونستانتين مكاريتش . »

كان سرور فانكا عظيما لأن أحدا لم يزعجه خلال كتابته ، فوضع قبعته على رأسه وخرج من البيت وقد نسى ارتداء معطفه المهلهل .

كان القصاب قد أخبره فى اليوم السابق أن الرسائل توضع فى صندوق أحمر وترسل من هناك إلى جميع أنحاء الأرض على زحافات تجرها خيول ويسوقها رجال البريد السكارى . فركض فانكا إلى أقرب صندوق بريد حيث رمى رسالته الثمينة .

وبعد ساعة ذهب فانكا إلى فراشه مليئا بالأمل ؛ فنام نوما هادئا عميقا ، ورأى فى منامه جده جالسا بجانب الفرن وقد خلع حذاءه يحرك قدميه ويقرأ رسالة فانكا ، بينما يسير الكلب فيون جيئة وذهابا محركا ذيله .

مكسيم جوركى

ستة وعشرون رجلا وفتاه

مكسيم جوركى

ولد مكسيم جوركى ، واسمه الحقيقى الكسى مكسيموفيتش بشكوف ، عام ١٨٦٨ فى بلدة نوجورود — جوركى فيما بعد — وتوفى عام ١٩٣٦ . وكان أبوه صباغا فى بادىء حياته ثم أصبح صانع أشياء دقيقة من الخشب . وفقد أباه وهو لم يبلغ الرابعة بعد ؛ ثم أمه وهو فى الثانية عشرة ، فاضطر إلى العيش فى رعاية جده القاسى الطباع .

وخرج جوركى إلى ما « بين الناس » على حد تعبيره ، فى تلك السن ؛ وتقلبت به الحياة وتقلب بها ، فتارة هو اسكافى ، وتارة حمال ، وأخرى يلتقط الخرق فى الشوارع ، ثم أجير على مركب ، وغسال صحون ؛ وفى كلمة واحدة كان جوركى صورة حية لاستغلال الإنسان لأخيه الإنسان . وكثيرا ما كان يقضى أيامه يفتش فى المزابل عن كسرة خبز يسد بها رمقه ، أو شبه عار يلف الأسمال على جسده الهزيل .

وجوركى لم يتخرج من جامعة ، أو يتثقف فى معهد ، بل كانت الحياة جامعته ، وكانت تجاربه أصدق معلم يتلقى عليه فنون الحياة وأساليبها .

ويعد جوركى « أفضل وريث للأدب الكلاسيكى الروسى فى القرن التاسع عشر ، وأبو الأدب السوفياتى المعاصر ، وخالق مفهوم جديد عن الأدب والفن ، ألا وهو المذهب الواقعى الاشتراكى . »

ويمتاز جوركى عن جميع الكتاب الذين عرفتهم روسيا ، أنه أول من حقق فى أروع صورة وأكملها ، نظرية الأدب الاجتماعى الثورى .

وقصة « مولد إنسان » قصة من صميم الواقع الذى عاشه جوركى وعاشه الكثير من أبناء روسيا ... قصة الإنسان الذى يولد فى عالم مرهق ... ينتظره مستقبل مجهول ... كله بؤس وألم ...

مولد إنسان

كان هذا عام ١٨٩٢ ، عام القحط والجوع — المشهد بقعة تقع بين سوخوم وأوتشنشيرى ، على ضفة نهر الكودور ، على مقربة من شاطىء البحر . ومن فوق قمم الجبال اللامعة كنا نتميز هدير البحر العذب الممتزج بصدى أصوات عميقة بعيدة .

وكان الوقت خريفا ... وأوراق شجر الغار الصفراء تتراقص فوق زبد نهر الكودور الأبيض كأنها سمك سلمان الجميل ... وكنت أجلس على الصخور التى تملأ الضفة أنظر من علياقى إلى النهر وأنا أفكر بأن الحافز إلى صراخ طيور النورس والغربان بهذا الحزن والأسى ، وهى تطير بعيدا فى الناحية اليمنى ، وراء الأشجار المرتفعة ، حيث يغطى الماء الشاطىء ، هو خيبة أملها وخطأها ـ مثلى أنا ـ حين تنقض على تلك الأوراق الصفراء التى تتراقص فوق سطح الماء ظانة إياها سمكا تأكله ، ولكنها كانت تبوء دائما بالفشل .

فوق رأسى امتدت أغصان أشجار الجوز وقد غطاها اللون الذهبى البراق ؛ وبالقرب من قدمى انتشرت مجموعة من الشجر تشبه أيد آدمية بترت من أرساغها . وعلى الضفة الأخرى واجهتنى أغصان الشبور وقد خلعت كل ماعليها من ورق فظهرت وكأنها شبكة ممزقة معلقة فى الهواء . وكان يمرح بين الأغصان نقار خشب جبلى ذو لون أحمر فاتح مشرب بالصفرة اللامعة . كان يقفز بسرور وانطلاق من طرف غصن إلى طرف آخر يصطاد بمنقاره الأسود القاتم بعض الحشرات الضالة التى أخذت من الأغصان مرتعا لها . وكان يساعده فى التهام هذه الحشرات والقضاء عليها

نوع غريب من العصافير يعرف باسم سن المنجل يأتى إلى هذه المنطقة من أقاصى الشمال وطيور خازن الجوز ذات اللون الداكن .

وإلى اليسار غطت الغيوم قمة الجبل منذرة بمطر غزير . أرسلت هذه الغيوم ظلالها فوق منحدرات طويلة خضراء حيث يقف شجر خشب البقس عاليا وحيث توجد أشجار الزان القديمة الغريبة الغنية بالعسل اللذيذ ... هذا العسل الذى قرر فى يوم ما ، أو بالأصح ، كان له أثر فعال فى تقرير مصير جيش بومبى المدجج بالسلاح ، فقد أعاقه عن المشى واستعمال أرجله . ويصنع النحل البرى هذا العسل من زهور الغاب ، فيستعمله المسافرون فى تغميس كعكهم الرقيق المصنوع من القمح .

وفى هذه المناسبة كنت أنا أيضا - بعد أن لسعتنى نحلة غاضبة - فى مجلس على صخور الشاطىء تحت شجرة جوز - أغمس ما معى من الخبز فى قدح من الشاى ملأته بالعسل . وأتمتع فى نفس الوقت بمشاهدة أشعة الشمس الخريفية المتعبة وهى تحاول الظهور من بين السحب المتراكمة .

تشبه بلاد القفقاس فى فصل الخريف كاتدرائية عظيمة بناها عمال عظام - والعمال العظام دائما مثقلون بالخطايا والذنوب - ليخفوا ماضيهم عن أعين الضمير الفاحصة المدققة . لقد قاموا ببناء كاتدرائية فخمة واجهتها من الذهب والياقوت والزمرد ، وحليت جدرانها بالسجاد الفاخر الموشى بالذهب والحرير ، قام بنسجه عمال من سمرقند وشماها . لقد قاموا بنهب العالم وسرقة خيراته ثم حملوا ماسرقوه إلى هذا المكان هدية وقربانا للشمس . أجل لقد فعل الرجال هذا وكأن لسان حالهم يقول : « كل شىء هنا هو ملك يديك ، أحضره شعبك خصيصا إليك . »

وكالحالم رأيت عمالقة تفوق الإنسان طولا ، طويلى اللحى ، بيض الشعر ، لهم عيون واسعة كعيون الأطفال ، يهبطون من التلال فيحرثون الأرض ويبذرونها بنفائس الكنوز ، ويغطون رؤوس الجبال بطبقات كثيفة من الفضة ، وأسفلها بشبكة حية من الأشجار الخضراء العظيمة .

أجل إننى أرى هؤلاء العمالقة وهم يزينون الكون ، وشكرا لعملهم ، فإن السماء التى تعانق أرضنا المباركة أصبحت تفوق كل وصف فى جمالها .

ما أروع أن تكون إنسانا ! ما أكثر الأشياء الجميلة التى ستمر أمام ناظريك ! - وسيثير هذا الجمال فى قلبك شعورا جميلا عنيفا كله غبطة وسرورا ، شعورا يفوق فى عنفه الألم .

حقا أنك ستجد الحياة فى بعض الأحيان صعبة شاقة ، وسيمتلىء صدرك بالحقد والكراهيه الملتهبة ، وسيملأ الحزن والأسى قلبك فيمتص دمك بحقد وشراهة ... ونهم فظيع ... ولكن هذا لن يستطيع أن يسيطر عليك إلى الأبد فلابد أن يزول فى يوم من الأيام ويصبح شيئا من الماضى ... وذكرى من التاريخ ... إن الشمس لابد أن تشعر بالأسى والحزن وهى تطل علينا وتتفحص وجوهنا ... إنه بالرغم من كل الجهد والتعب الذى تكبدته من أجل هذا الإنسان فإنه لازال قزما ممسوخا ... يقابل كثير صنيعها بقليل من عنده !

كلا ... إن العالم لايخلو من الناس الطيبين ... ولكنه محتاج إلى إصلاح مافسد فيهم — لترميمهم وصنعهم من جديد ...!

* * *

وفجأة ظهر خلف الأعشاب الطويلة الناميـــة عن يسارى جمع من

الرؤوس السوداء .. ومن خلال خرير ماء النهر سمعت أصواتا إنسانية .. أصوات جماعة جائعة أو جماعة من المسافرين تشق طريقها من سوخوم إلى أو تشنشيرى ليحصلوا على عمل فى بناء الطريق التى يزمع إنشاؤها .

وعرفت أصحاب الأصوات هذه . عرفت أنهم مهاجرون من مقاطعة أرلوف . لقد عملت معهم مؤخرا فى إحدى الشركات ، واستأذنت فى المسير لوحدى ، بالأمس فقط ، حتى أسبقهم فى المسير ليلا فأحيي الشمس صباحا وهى ترسل أشعتها فوق البحر .

كان يتألف هـذا الجمع من أربعة رجال وامرأة ـ امرأة صغيرة قد برزت عظام وجهها ، وجسدها منتفخ من الحمل ، ذات عينين تميل إلى الزرقة الممزوجة بالسواد ، تبدوان مليئتين بالخوف الممزوج بالحيرة . وفى هذه اللحظة كنت أرى رأسها المغطى بوشاح أصـــفر يعلو فوق الأعشاب الطويلة ، ثم يتمايل إلى اليمين ثم إلى اليسار كزهرة مثقلة بالبراعم يدغدغها الريح بين حين وآخر ...

تذكرت فى تلك اللحظة أن زوجها توفى فى سوخوم من جراء تخمة ، بأكل كمية كبيرة من الفواكه ـ لقد عرفت هذه الحقيقة من مقاسمتى لهم الغرفة فى ثكنات العمال فى سوخوم ؛ وكعادة جميع الروسيين المسنين كانوا يطلعونني على جميع ما تعترض حياتهم من متاعب . وكانوا يطلعونني على هـذه الحقائق بصوت واضح عال كان يسمع بلا شك عن بعد خمسة أميال ...!

وعندما تحدثت إلى هؤلاء الناس التعساء ، هؤلاء الآدميين الذين سحقهم الشقاء والألم فخلعهم من بيوتهم وأراضيهم وحملهم إلى هنا ، كما

تحمل الرياح أوراق الشجر المتساقطة فى فصـــل الخريف . حملهم إلى القفقاز حيث أدهشهم الجو الرائع ؛ وقضت أحداث الحياة على البقية الباقية من شجاعتهم ؛ عنـدما تحدثت إلى هؤلاء الناس الفقراء المساكين رأيتهم ينظرون حولهم بعيون ذابلة بلهاء خائفة ، عيون زائغة حيرى ، ثم سمعتهم يقولون لبعضهم البعض والابتسامة تملأ وجه كل واحد منهم :

- يالها من بلد !

- أى ... أجل إنها ...! بلد تجعل الإنسان يعرق !

- إنها قاسية التربة كالحجر !

وبعد ذلك يتحدثون عن قراهم الأصلية ، حيث تذكرهم كل حفنة من التراب بشىء من بقايا أجدادهم .. وأجداد أجدادهم . وحيث سقيت كل ذرة من التراب من عرق جباههم ، فأصبحت قطعـــة عزيزة من الذكريات ...

وكانت ترافق الجمع امرأة طويلة ، مستقيمة الظهر ، ذات صدر مسطح كاللوح ، وفكين كفكى حصان ، ونظرات بليدة بلهاء ، وعينين واسعتين تشع كالنار المتوهجة .

فى كل مساء كانت تذهب هـــذه المرأة مع زميلتها ذات الوشاح الأصفر خارج الثكنات فتجلس على كومة من العشب أمام كوخ متهدم ، تجلس القرفصاء وتسند خدها إلى راحة يدها ثم تميل رأسها جانبا وتبدأ تغنى بصوت غاضب عال :

« خلف جدار المقبره ...

« حيث تنمو أعشاب طويلة خضراء

« سأنتشر فوق الرمال
« جثة بيضاء كالثلج
« ولن يمض وقت طويل
« قبل أن يجيب حبيبى ...
« وسيدى ومولاى ...
« على صلواتى وتضرعاتى . »

وفى غالب الأحيان كانت رفيقتها ذات الوشاح الأصفر تجلس فى صمت حانية رأسها إلى أسفل ، وعيناها عالقتان ببطنها . وفى بعض الأحيان ، ومن غير انتظار كانت تغنى بصوت مبحوح عميق وهى تحاول إخفاء دموعها :

« ياحبيبى ومهجتى وفؤادى
« لن تقع عيناى بعد اليوم على عينيك . »

ولم يحدث أن فشلت أصواتهم التى تؤنس وحشة ليل الجنوب المظلم السواد فى أن تعيد إلى ذاكرتى ذكريات صحارى الشمال المغطاة بالثلوج ، والعواصف المدوية ... وعواء الذئاب الجائعة البعيد ...

وقد أصيبت المرأة ذات العيون التى تشع كالنار أخيرا بالحمى ، فنقلت إلى المدينة على نقالة ميدان : وبينما هى تئن وترتعش فى مرقدها خيل لى أنها لازالت تغنى أنشودتها الصغيرة الحزينة عن المقبرة ... والرمال !

* * *

ظهر الرأس المغطى بالوشاح الأصفر فوق الأعشاب الطويلة ؛ ثم غاص واختفى .

بعد أن أنهيت إفطارى غطيت مابقى من العسل فى القدح بأوراق الشجر ، وأحكمت رباط حقيبتى ، وسرت فى طريق أمشى فى بطء أقرع الأرض بعصاى السوداء تابعاً صحبى .

وامتد الدرب أمامى متعرجا ، رماديا ، ضيقا بينما راح البحر يلهث عن يمينى كأن آلافا من النجارين غير المنظورين يسوونه بآلاتهم ؛ والموج الأبيض يدغدغ الشاطىء فتطاير حبات الماء من مداعبات الريح الحارة الندية ، ذات الرائحة التى تشبه أنفاس امرأة قوية البنية .

وقريباً من المرفأ راح يتهادى زورق تركى منتفخ الشراع كخدى مهندس الطرق فى سوخوم المنتفخين . وقد اشتهر هذا المهندس بعجرفته وحبه الغريب لحبس الناس والقائهم فى السجون . اعتاد أن يقول دوما : « اخرس . . . وإلا ألقيت بك فى السجن . . »

وفى كل وقت كنت تراه يجر شخصاً إلى السجن كنت تقرأ على وجهه آيات السرور والغبطة . .

وكم اغتبطت لدى التفكير بأن الدود لاريب قد أكل جسده حتى العظام فى ذلك القبر الذى يقبع به .

كان سيرى سهلا يسيراً : كما لو كنت أسبح فى الهواء ، وقد امتلأ صدرى بأفكار سارة تغنى برقة وعذوبة ... وعاودتنى ذكريات حبيبة متعددة الألوان ترقص فى عذوبة ونظام رامية الغطاء عن آمال الشباب الأمينة الغور البراقة التى تشبه سمكة فضية فى وسط المحيط . .

وفجأة تعرج الدرب وهو ينحنى نحو البحر ، فاقترب شيئاً فشيئاً من اللسان الرملى الذى تحتضنه الأمواج وتتلاطم على صخوره بسرعة غريبة عربيدة كأنها تثور على هذه الحواجز التى تعيق تقدمها — حتى الأعشاب الطويلة فى تلك البقعة كانت ثائرة على الأمواج تنظر اليها فى تحد وشدة - وكانت ثورتها من النوع الحبيب الذى يحتضن ويرحب بكل جديد من ذلك المد الأزرق ، فينحنى له ويقبله . ثم يعود فيثور ويغضب ويعبس فى وجه كل قديم يتكسر تحت أقدام الصخور . .

وكانت الريح تهب من الجبال . . منذرة بالمطر والأدغال تئن تحت وطأتها - أنه البشرى الذى ناء بحمل كاد يقصم ظهره .

* * *

ولكن لم كل هذا . . ! وارتفعت أنه خافتة من بين الأعشاب - أنة آدمية من النوع الذى يخترق حنايا الضلوع فيذكيها !

وباعدت بين سيقان العشب على أرى .. فرأيت المرأة ذات الوشاح الأصفر وقد جلست على الأرض مسندة ظهرها إلى جذع شجرة جوز ضخمة .. بينما تدلى رأسها على كتفها ، فاغرة فاها فى هلع . . وعيناها تنظر أمامها بحيرة ووجل . . تشد على بطنها المنتفخ ، وبطنها يرتجف بعنف تحت هزات التنفس غير الطبيعى . . بينما هى تئن فى وحشية مظهرة أسنانها الصفراء الشبيهة بأسنان الذئب .

انحنيت عليها وسألتها :

- ماالذى حدث ؟ هل آذاك أحد ؟

فأجابتنى بحك قدميها بالرمال كقطة تحاول تنظيف نفسها وحركت

رأسها بشدة وهى تلهث وقالت :

- أبتعد أيها الشؤم .. أبتعد .. ألا تخجل !

وأخيراً فهمت ماحدث .. لقد سبق أن رأيت مثل هذا الحادث ولكن فى تلك اللحظة سيطر على شعور بالخجل والذعر فتراجعت إلى الوراء .. وما أن فعلت ذلك حتى صرخت المرأة بشدة .. وظهرت عيناها كجمرتين متألقتين خرجتا من محاجرهما .. فانحدرت الدموع على خديها المتوردين ..

وتقدمت منها ثانية .. وألقيت حقيبتى .. وإبريق بعيدا ... ومددت المرأة على الأرض وحاولت أن أثنى ساقيها عند الفخدين فرمتنى بعيدا بضربة من قدمها على صدرى ... وتبعتها أخرى على وجهى ؛ ثم تكورت وزحفت على يديها وقدميها بعيدا وراء إحدى الأشجار الكبيرة وهى تزمجر وتهدر كدب جريح ثم صرخت فى وجهى قائلة :

- وحش .. حيوان .. يالك من شيطان !

وخانتها ذراعاها وهى تنطق تلك الكلمات فسقطت على وجهها وقد مددت ساقيها وبدت عنها صرخة مضطربة .. وتبعتها أخرى .. وأخرى.

تذكرت بسرعة ، وقد هزنى هذا المشهد وتلك الصرخات المضطربة ، كل ما أعرفه عن مثل هذه الحالات - فتقدمت من المرأة ومددتها على ظهرها ثانية ، وحاولت كسابق عهدى أن أثنى قدميها عند الفخدين - كان الحبل السرى قد ظهر .. !

قلت لها :

- استلق بهدوء .. فلن يطول بك الوقت قبل أن تضعى وليدك !

وركضت إلى الشاطىء، وشمرت عن ذراعى، وغسلت يدى، ثم عدت لأبتدىء عملى كقابلة .

ابتدأت المرأة تتلوى على الأرض كقشرة شجرة يعبث بها الريح أو كأوراق الشجر الملقاة بالنـــار ، وراحت تضرب الأرض بقبضتيها ، وتقطع العشب وتضعه فى فيها .. ونثرت التراب على وجهها الصلب القاسى الذى يشبه وجه وحش خرافى .. وجحظت عيناها بشدة وذعر ، وظهرتا باحمرارهما الداكن كعينى سكير عربيد .. وظهر الحبل السرى أكثر فأكثر وتقدم رأسى الوليد ... واحتجت كل جهدى كى أثبت ساقيها حتى يخرج الوليد إلى العالم بسلام .. وحتى أمنعها من ازدراد الحشائش .

وتبادلنا الشتائم بعض الوقت : هى من خلال أسنانها المقفلة وأنا بصوت خفيض . هى من الألم ومن الخجل .. وأنا من حيرتى الممزوجة بالشفقة والاضطراب .

تأوهت بشدة قائلة :

- يا إلهى !

كانت شفتاها زرقاء معضوضة مغطاة بالزبد ، وسيل من الدموع ينساب من عينيهـــا اللتين خبا نورهما من أشعة الشمس .. وجسدها الهزيل يتلوى بشدة كأنه سيقصم بعد قليل ..

وصرخت بشدة وهى تضرب الأرض براحتيها :

- ابتعد أيها الوغد .. ابتعد أيها الشيطان .. !

وحاولت أن تدفعنى بعيدا إلا أن يداها كانتا أضعف من أن تفعل ذلك .

فقلت لها :

- كفى حماقة .. حاولى أكثر .. بشدة .. وسينتهى كل شىء سريعا .

وكان قلبى ينفطر حزنا لرؤياها حتى أن دموعى بدأت تنساب على خدى بتلك الغزارة التى تهطل بها دموعها .

ولم أكف عن الشعور بأنه يجب على أن أستمر صارخا فى وجهها ، وقد صرخت فعلا :

- والآن .. حاولى بشدة .. أسرعى قدر طاقتك !

* * *

وأخير - حملت بين ذراعى مخلوقا بشريا كله جمال فطرى .. ولم تمنع الدموع المنهمرة من عينى رؤية ذلك المخلوق - كان أحمر اللون ، قاتمة ، ومن تصرفاته البدائية وصراخه المستمر ورفسه بقدميه استطعت أن أحكم أن هذا المخلوق الأحمر الضعيف غير راضى عن الوجود . . . ما أجمل عينيه ! كانتا زرقاوين ، وأنفه الأفطس الصغير بدا معدوما بين خدين منتفختين ورديين ، وشفتاه تتحركان باستمرار وهو يصرخ :

- وا . . . ع . . . وا . . . آ !

كان جسده ملسا رقيقا بحيث أننى حين اقتربت منه مبتسما بوصوله سالما إلى عالمنا كاد ينزلق من بين ذراعى . وقد نسيت ما يجب على أن أفعله بعد ذلك !

وهمست الأم بعد وقت قصير بصوت واهن ضعيف وعيون مغلقة ووجه منتفخ :

- اقطع الحبل .

ثم عادت وهمست ثانية :

- أقطعه بسكين ... أليس لديك سكيناً ؟

لم يكن معى سكينا . . . فقد سرق أحد العمال سكينتى فى الشكنات التى كنا نسكنها فى سوخوم ... فانحنيت على الوليد وقطعت حبل السرة بأسنانى ، واستمر الطفل يصيح ويصرخ وقد علت شفاه الأم ابتسامة راضية وعاد إلى عينيها لونهما السابق فانتعشتا وأصبحتا كقطعتين من نار صافية زرقاء . وبحثت يدها اليمنى عن جيبها ثم قالت :

- ليس لدى قطعة من القماش أربط بها سرته .

لدى سماع هـــذه الكلمات قطعت شريطا رفيعا من ثيابى ربطت به سرة الوليد . . .

وابتسمت الأم ثانية وقد امتلأ صدرها بالغبطة والسرور . . وكان سرورها جميلا عنيفاً يفوق فى عنفه الشعور بالألم - فأذهلنى هذا الشعور القوى العجيب ، وقلت لها :

- استريحى قليلا . . . ريثما أذهب وأغسل الوليد !

فهمست بصوت عذب لطيف :

- أجل .. ولكن كن حذرا . . لطيفا .

إلا أن ذلك القزم الأحمـــر الذى رأى النور منذ لحظات لم يكن

ليحتاج إلى لطف أو حذر .. فقد رفس بقدميه وحرك قبضته كأنه يدعوني إلى القتال .

فقلت له بصوت رقيق :

ـ مهلا أيها الأخ ... لا داعي إلى هذه الشقاوة ... وإلا حطمت رأسك !

وما أن شعر هذا القزم الأحمر بمياه البحر وهي تدغدغ جسده حتى بعث صرخة شرسة عالية كلها احتجاج وغضب ... واستمر في صراخه ذلك ، والأمراج تداعب جسده الأحمر الصغير .

فقلت له مشجعاً :

ـ أصرخ عالياً .. هيا تابع صراخك من قمة رئتيك ! وليعلم الناس والعالم أنك ابن أرلوف !

وعدت به إلى أمه . وجدتها مغلقة العينين تعض شفتيها كلما انتابتها نوبة من نوبات ألم مابعد الوضع . وسمعت من خلال أنينها المتقطع صوتها يقول لي :

ـ أعطنيه ... أعطنيه .

فقلت :

ـ من الصواب أن تنتظري قليلا !

ـ كلا ... أعطنيه ... أعطنيه الآن !

وبأيد مرتجفة فكت أزرار قميصها وساعدتها على إخراج ثديها

الذى وهبته الطبيعة قوة تكفى لتغذية عشرين طفلا على الأقل . وضعت القزم الأرلوفى على صدرها ، ففهم بسرعة فائقة وكف عن الصراخ والعويل !

قالت الأم بصوت خافت وهى تعبث برأس وليدها بأيد مرتجفة :

ـ أيتها العذراء الطاهرة . . يا أم الإله !

ثم توقفت عن الكلام وأخذت تئن بصوت ضعيف كصوت إنسان فى بئر . . وفتحت عينيها الجميلتين ، عينين غائرتين لأم انجبت ، فوهبت العالم منذ دقائق مخلوقا جديدا كله غضب . . وعدم رضى .. ورفعت عينيها إلى السماء الزرقاء تشع منهما ابتسامة عذبة كلها شكر وامتنان ! وببطء رفعت الأم يدها ورسمت علامة الصليب فوق المخلوق الذى كان يمتص ثديها بنهم . .

قالت :

ـ شكراً لك يا أيتها العذراء الطاهرة . . يا أم الإله !

وذهب النور من عينيها ثانية .. وشحب لونها مرة أخرى . . وصمتت فترة طويلة خيل لى خلالها أن نفسها قد انقطع . . . ثم قالت بصوت عميق رزين كمن يقرر حقيقة :

ـ أيها الشاب . . . حل رباط حقيبتى .

ففعلت وهى تنظر إلى بعيون صلبه ، وما أن انتهيت من فك الحقيبة حتى ابتسمت بخجل وقالت :

ـ والآن . . . ابتعد قليلا !

فقلت محذراً :

- على شرط ألا تزعجى نفسك أو تتحركى كثيراً !

- حسناً لن أفعل !

وابتعدت قليلا وفى صدرى كان يتأجج شعور فضولى متعب .. جنباً إلى جنب مع شعور رقيق عـــذب ، كصوت الطيور الجميلة وهى تغرد بعذوبة .. وكانت تختلط تلك الأصوات بخرير البحر الدائم وتلاطم الأمواج المستمر .. وخيل لى أننى حقاً أسمع أصوات عصافير مغردة .

وبالقرب منا كان يمر جدول صغير من الماء لصوته وقع حنون كصوت فتاة تقص على صديقتها أخبار حبيبها ..

وفجأة ظهر رأس مغطى بوشاح أصفر فوق الأعشاب الطويلة ... فصحت باستغراب :

- ماهذا أيتها المرأة ؟ يجب أن تستريحى قليلا !

حقا لقد كان مظهرها تعبا حتى أنها مالت على غصن شجرة تستند عليه من الاجهاد ، وغاض الدم من وجهها ، وبان واضحا السواد تحت عيناها . وابتسمت ابتسامة باهتة حنونة وقالت وهى تشير إلى الطفل :

- انظر ! إنه نائم !

نعم ، كان ينام الطفل بهدوء .. إلا أنه لم يكن ليختلف فى نظرى عن أى طفل آخر ... اللهم إلا فى اضطجاعه على كومة من أوراق الشجر الصفراء التى لاتوجد فى أرلوف .

ونصحت الأم قائلا :

- والآن ... اضطجعى قليلا

فاجابت بهزة عنيفة من رأسها وقالت :

- كلا ... يجب أن أجمع حاجاتى وأمضى إلى ... ذلك المكان ... لست أدرى ماهو ؟

- أتعنين أوتشنشيرى ؟

- أجل . أظن أن صحبي على بعد فراسخ من هذا المكان .

- ولكن هل تستطيعين السير ؟

- ستساعدنى العذراء الطاهرة .

حقا ليس باستطاعتى أن أقول شيئا مادامت العـــذراء الطاهرة ستساعدها !

ونظرت إلى القزم الصغـــير ثانية ... ووجهه الأحمر القانى بين الأعشاب ... والنور يشـع من عيني أمه وهى تنظر إليه بحنان ورفق ثم تحسست صدره بلطف ولعقت شفتيها .

وببطء جمعت بعض الحطب فأشعلت نارا وضعت أحجارا بالقرب منها ووضعت عليها ابريق وقلت :

- سأعد لك بعض الشاى يا أماه !

قالت :

- سأكون شاكرة لو فعلت ... إن حلقى ناشف كأرض يابسة !

سألتها ثانية :

- ولم هجرك صحبك ؟

- لم يهجرونى .. لكننى تركتهم .. فكيف تريدنى أن ألد أمامهم؟!

ونظرت إلى بخجل ثم رفعت يدها إلى فمها وبصقت دماً وابتسمت ابتسامة حيرى باهته . فسألتها :

- أهذا طفلك الأول ؟

- أجل ... من أنت ؟

- إننى رجل ...

- أعرف أنك رجل ... ورجل بكل ما فى الكلمة من معنى . . . ولكن هل متزوج أنت ؟

- كلا ... لم أستطع الوصول إلى هذا الشرف !

- ولكن هذا مستحيل ! إنك تكذب ...!

- كلا ... إنه الصدق .

خفضت عينيها ببطء وفكرت ثم قالت :

- ولكن من أين تعرف أمور النساء ؟

وهنا اضطررت أن أكذب فقلت :

- لقد درست ذلك ... إننى طالب طب !

- آه ! إن ابن كاهننا كان طالباً أيضا ... طالباً فى شؤون الكنيسة .

- حسنا ... ها أنت تعرفين الآن من أنا فاسمحى لى أن أذهب وأحضر بعض الماء .

وحنت رأسها لدى سماع هذه الكلمات تقبل وليدها وتستمع إلى أنفاسه الحارة ، ثم قالت وهى تحول نظرها إلى البحر :

- أود أن أغتسل ... ولكننى لاأعرف شيئا عن الماء هنا .. أهو مالح أم حلو ؟

- إنها مياه عذبة - صالحة للاغتسال .

- حقا ؟

- أجل ... إنها دافئة ، فاذهبي واغتسلى .

- إنك أعلم بها منى .

واقترب منا حصان صغير صلب كله عظام ... اقترب منا بحذر وهو ينظر إلى وجوهنا بعيون واسعة سوداء ، ثم صهل بشدة ، فرفع راكبه رأسه ودفع قبعته الفرو إلى الوراء ثم نظر الينا بكسل ... وعاد فترك رأسه يتدلى ثانية ... كأنه لم ير شيئا !

قالت المرأة الأرلوفية بصوت هامس عذب :

- إن أهل هذا البلد قبيحوا المنظر ... لايستطيع الإنسان النظر إليهم !

وذهبت إلى الجدول ... وبعد أن غسلت وجهى ويدى ملأت إبريق من الماء المتصاعد البراق وخريره العذب وزمجرته العربيدة تتناغم وتراقص أوراق الشجر المتساقطة فوقه فى سرور وانشراح ... ثم عدت أدراجى ونظرت من خلال الأغصان ، فرأيت المرأة منحنية على الأرض ،

فوق الحجارة ... تنظر باهتمام حولها كمن يبحث عن شيء . فسألتها :

- ماذا حدث ؟

توقفت المرأة عن بحثها وقد ذعرت لسماع صوتي واحمر وجهها ، لست أدرى إن كان من الغضب أم من الخجل . وحاولت باضطراب أن تخفي تحتها شيئا عرفته للتو ، فقلت :

- أعطنيه ، سأدفنه بعيدا

- ما الذى تقوله ؟ ! يجب أن يدفن أمام فرن

- هل سنستطيع بناء فرن هنا - فى خمس دقائق ؟

- لقد كنت أمزح ... ولكنى أفضل ألا ندفنه هنا ، فلربما جاء حيوان مفترس والتهمه ! ولكن يجب أن ندفنه . . !

قالت هذا ثم أعطتنى حزمة ثقيلة مبلولة . وما أن فعلت ذلك حتى قالت باضطراب وخجل :

- أرجوك محبة بالمسيح أن تدفنه فى أعمق حفرة تستطيع حفرها . . أفعل ذلك شفقة بى وبابنى .

فعلت ما طلبت منى . وعندما عدت رأيتها قادمة من الشاطىء بخطوات غير ثابتة مضطربة ، وذراعها ممدودة أمامها . . وملابسها مبلولة حتى خصرها .. وكان وجهها يشع بنور غريب . . نور أشبه بنار قوية تضيء ليل الخريف المظلم ... وما أن ساعدتها على الاقتراب من النار حتى قلت فى نفسى وقد تملكتنى الدهشة :

- يا لقوتها ... إنها أشبه بثور منها بإنسان !

وسألتنى ونحن نتناول الشاى الممزوج بالعسل :

- هل انقطعت عن دراستك ؟

- أجل !

- ولكن لماذا ؟ هل من كثرة السكر ؟

- نعم يا أماه ...

- يا للشيطان ! إن وجهك مألوف لدى . . إننى أذكر أنى رأيتك فى سوخوم ... كان ذلك على أظن ، فى اليوم الذى كنت تتناقش فيه مع مدير الشكنات وتتذمر من الأكل وكميته . قلت فى نفسى وأنا أستمع إليك آنذاك : « لابد أن هذا الشاب الشجاع قد صرف كل ما معه على الشراب . »

ولعقت العسل عن شفتيها المنتفختين ثم نظرت إلى الأرلوفى الصغير وهو ينام فوق الأعشاب آمنا ، ثم تنهدت ، وقالت :

- رباه ، كيف سيعيش ...؟! لقد ساعدتنى ، وأنا أشكرك من صميم قلبى ... ولكنى لا أدرى إن كانت مساعدتك لى قد ساعدته هو !

وأكلت قطعة من الخبز وهى تشرب ماتبقى فى قدحها من الشاى ، ورسمت علامة الصليب ... ورحت أجمع حاجاتى بينما جلست هى تأرجح نفسها ، وتئن بلطف ، وتنظر إلى الأرض بعيون مدققة فاحصه كان يشع منهما نور وهاج أزرق . . . وأخيراً نهضت ، فقلت محتجا :

- إنك لست ذاهبه ؟ اليس كذلك ؟

- إنى ذاهبة . . . يجب أن أذهب !

- ولكن . . .

- العذراء الطاهرة ستساعدنى . . . أرجوك أن تعطينى إياه .

- كلا . . . سأحمله أنا

وتناقشنا طويلا حول من سيحمل القزم الأحمر الصغير . . وأخيراً رضخت وقبلت أن أحمله أنا . . . وسارت بجانبى ثم قالت ضاحكة بخجل وقد وضعت يدها على كتفى :

— أمل ألا أقع على الأرض . .

راح المواطن الروسى الجديد ، ذو المستقبل المجهول ، يشخر بصوت عال وهو مضطجع بين يدى ؛ ومن حولنا كان البحر يزمجر وتتحطم أمواجه على صخور الشاطىء بشدة فيتطاير رذاذ الماء الأبيض الشبيه بقطع الفضة ، بينما كانت الأعشاب تتهامس . . . والشمس - تحيينا بأشعة دافئة وهاجة وهى منتصبة فى كبد السماء .

وسرنا ببطء وقد علا البشر وجوهنا . . . وبين حين وآخر كانت الأم تتوقف فتأخذ نفسا عميقا وتستعرض البحر والغابات والتلال . . ثم تنظر الى وجه طفلها . وكانت عيناها تمتلىء بدموع الألم . . . إلا أن تلك الدموع لم تستطع أن تحجب الصفاء الجميل الذى يحلى عينيها . . والنور الأزرق . . نور الحب الذى لا ينتهى الذى كان يشع من عينيها .

وتوقفت مرة ونظرت حولها ثم قالت :

- رباه ! ياأم الإله الطاهرة ... ما أروع الحياة ... لوكان بإمكانى أن أسير هكذا دوما ... أجل ... أسير وأسير إلى نهاية العالم ! وكل ما أريده أن أرى ولدى ... ولدى الحبيب ينمو بحرية على صدر أمه .. حتى يشتد عوده فيصبح باستطاعته مقارعة أحداث الحياة !

واستمر البحر يهدر ... عاليا ... وأمواجه تتقدم إلى الأمام ... استمر يهدر ويزمجر بصوت حبيب !

سرجيف - تزنسكى

رجل لايموت

س . سرجيف – تزنسكى

ولد تزنسكى عام ١٨٧٠ فى إحدى قرى القفقاز وعاش وتربى هناك . ومثله كمثل جوركى لم يتتلمذ على أيدى أئمة العلم والفن ، بل كان من « الناس » ؛ وتعلق بالقراءة منذ الصغر ، فكان يقرأ كل مايقع بين يديه من أدب ، إلى أن نهل منابعا كثيرة من الأدب العالمى .

وتأثير جوركى على تزنسكى تأثير واضح للغاية فى الشخصيات التى يرسمها تزنسكى ، الشخصيات البسيطة التى تخرج « من بين الناس » لتنير الطريق ، وتفتح الآفاق ، وتبث الايمان فى المستقبل .

وشخصيات تزنسكى ، فى جميع قصصه التى وصلت إلى أيدينا ، شخصيات لاتعرف التشاؤم والانحلال ، بل هى شخصيات ثورية تؤمن بالفجر ، وتؤمن بالناس ، وتؤمن بأن النصر للنور حتى ولو طال أمد الليل .

وحياة تزنسكى لانعرف عنها إلا القليل ، فلم يصل إلينا من آثاره إلا النذر اليسير وذلك لعدم الاهتمام بترجمة قصصه الحية إلى اللغات الأجنبية . ولعدم اهتمام المترجمين العرب الملمين باللغة الروسية بنقل آثاره إلينا .

حقا ، ما أحوجنا إلى الإلمام بكل ما كتب تزنسكى ، ما أحوجنا إلى أدب إنسانى كأدبه .

رجل لا يموت

حين يضرب الرجل رجلا آخر فإنه لا يفعل ذلك بمطلق ثقته واطمئنانه ، بل إنه يضربه فى خوف وجبن ، ليس هذا فقط بل إنه حين يوجه اليه الضربة تلو الأخرى يخاف فى الوقت نفسه أن يفاجئه الآخر بضربة غير منتظرة . يضرب الضحية بالقسم الأكبر من نفسه ، أما القسم الصغير الباقى فإنه يراقب ويزن ويتأمل .

ويهمس الصغير قائلا : كفى .

ويستمر الأكبر فى الضرب .

ويهتف الصغير : كفى ... إنه جنون ...

ولا يبالى الأكبر بل يستمر فى الضرب ، لكن بهمة أقل .

ويصرخ الصغير فى النهاية : كفى ... إنى آمرك .

وفى لحظة تتبدل الأحوال فيحتل الصغير مكان الأكبر ، ويبتعد الذى ضرب وعلى وجهه آمارات الظفر والفخر ، بينما أعماقه تحس بالخزى والخجل ...

هذا مايحدث للفرد ، ليس للجماعة . فالجماعة لاتعرف الشعور الرقيق ، وهى إذ تصرخ ، إن صرخت ، لاتصرخ إنما تحاكم ، وهى لاتقبل النقاش بل تأمر ، وإذا ضربت فإنما تعاقب ، وكل من تضربه الجماعة يعلم أنه لن ينهض مرة أخرى .

وفيودور — فيودور تيتكوف ، أحد فلاحى قرية أوربينسكايا فى القفقاز كان يعلم ذلك .

كان قصيرا ، غريب الملامح ، ضامر الجسم ، يضفى عليه وجهه المشرب بالحمره جوا من الثقة . ولم تكن عيناه الضيقة فى محجريهما ، بل كانتا ترقدان وكأنما تستريحان لأجل طويل . ومع كونها كذلك فقد استطاع أن يرى النور ، كما فعل رفيق آخر ، مانولاتى ، غجرى من الصرب ، فى وجهه آثار جروح عميقة ، ورفيق ثالث ، كارافانتشينكو الاسكافى فى بلدة أختيركا ، ورفيق رابع ، سيمون ، رجل حزين ساخر ، ذو صوت عميق مرتفع ، وعيون تلمع ...

كان رجال القيصر قد قبضوا عليهم فى القرية : وقيدوا أيديهم وأرجلهم بالحبال ، وسألوهم بحدة :

ـ ثوريون ؟

أجابوا بالحدة نفسها :

ـ أجل ثوريون .

ومد مانولاتى رقبته وأضاف فى إيمان :

ـ انتظروا ... وستروا كيف سنصل إلى القمة وسيؤمن بنا الشعب .

وقادوهم إلى بئر ، ولم يصرخ فى وجههم أحد أو يزجرهم إنما تصاعد الغبار من أحذية رجال القيصر الثقيلة التى كانت تضرب الأرض فى عنف وشدة ، فعطس أحدهم ، وسعل آخر ، وبصق ثالث .

ووقفت نساء القرية يحملن أطفالهن وقد أخرجن أثداءهن يرضعنهم على جانبى الطريق يشاهدن الموكب ويتفحص مافى داخل الغبار الذى تثيره أحذية رجال القيصر الثقيلة .

لقد كان تيتكوف فى هذا المكان قبل أن يلقى عليه القبض بدقائق

يأكل سمكة مملحة . لكنهم لم يتركوا له فسحة من الوقت ليروى ظمأه . فاعتقلوه هو ورفاقه ورموا بهم فى مخزن للغلال .

وكان اليوم حارا شديد القيظ ، وتيتكوف يهفو إلى قطرة ماء واحدة ، وبينما كان يقترب من البئر كان يشعر بجميع عضلات جسمه الضامر المتورم أن الجنود يقودونه إلى المكان الذى هو فى حاجة اليه تماما . وبحثت عيناه فى لهف عن « الدلو » . وكان « الدلو » كبيرا واسعا يصلح لأن يكون حماما ، وكان قد علق فى مكانه بسلسلة حديدية يلمس فوقها الماء الذى يبللها .

وأصبحوا بجانب البئر وكان الوعاء مملوءا إلى حافته . الظاهر أن أحدهم قد سقى حصانه منذ دقائق ، ولما ملأ الوعاء مرة ثانية رفض الحصان أن يشرب .

وحول البئر كانت الرمال رطبه ، ومن رطوبتها تصاعدت رائحة الماشيه .

واستقرت ذبابة كبيرة على خد تيتكوف ، وحك خده فى كتفه الأيسر ليطردها من غير أن يحول نظره عن الوعاء الممتلىء دقيقة واحدة .

وحين أمروا بالتوقف قال ببساطة دون أن يرفع صوته ولكن بنبرات مسموعة خالية من التذلل :

ـ هيا بنا نشرب يارفاق .

وسمعه رجل واقف بجانبه ، ذو لحية حمراء ، ظهرت عروق زرقاء على أنفه وتدلت من تحت قبعته خصلات من الشعر بللها العرق ، فأجابه ببساطة :

- إشرب نخب انتصارك ...!

وبكل ما أوتى من قوة صفعه على خده الذى كانت قد حطت عليه الذبابة وطردها منذ دقائق .

وفى نفس الوقت رآهم يطرحون رفيقه سيمون أرضا ، وخيل اليه من قوة الصفعه أنه رأى رأس مانولاتى الأسود يطير فوق رؤوس الجميع . وما كاد يلحظ هذا حتى خبطه شىء فى مؤخرة رأسه فجعله يقع إلى الأرض على ركبتيه . وغمغم بصوت واضح :

- هذه نهايتنا ...

وكالسلحفاة جذب رأسه فأدخلها بين كتفيه ، وضم رجليه ثم رقد على وجهه فوق الأرض ، وأحس بالرمل الرطب يبلل شفتيه ، ورائحة بول الخيول المتصاعدة من الرمل تملأ خياشيمه .

وحاول أن يخبىء يديه المربوطتين تحته ، ولكن الحبل قاوم كل محاولاته اليائسة .

واستمروا يضربونه فى صمت ، ولم ينقطع ضربهم إلا لفترات قصيرة ، وكانوا يضربونه فى نشاط وحماس كأنهم يقتلون خنزيرا .

وكان تيتكوف يستطيع فى بادىء الأمر أن يحدد مواضع الألم فى جسمه ، ولكن بعد مدة انتشر الألم فى جسده كله فاستحال عليه تحديد المكان الذى يؤلمه أكثر . لقد كانت جميع عضلات جسمه تؤلمه . واستمروا يضربونه ... وهو لايفعل شيئا سوى أن يكز على أسنانه ويبتلع مع ريقه قليلا من الرمل .

وشيئا فشيئا خفت صراخ سيمون ، وقال تيتكوف فى نفسه : لقد

قتلوه . وخبأ رأسه أكثر فأكثر بين كتفيه . ولكنه كان يسمع صوت مانولاتى وهو يجاهد صائحا :

- سننتصر ... الشعب سينتصر ... سيصل رفاقنا إلى القمة ... سننتصر ... وسنحكم قريبا ... قريبا ...

وفكر تينكوف فيه : إن مانولاتى قوى ... سيحتمل ... وسيحتمل كثيرا من العذاب .

وفجأة تلقى تينكوف ضربة على ذراعه اليمنى . فسرى الألم إلى جذور شعر رأسه ، وأعقبتها ضربة أخرى على رأسه . ولم يعد يسمع صوت مانولاتى أو أى شىء آخر .

* * *

وأيقظته الرطوبة ...

وكان مبللا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ...

ولم يستطع لأول وهلة تذكر ماحدث ... ومر وقت قليل فتذكر .. تذكر البئر ، ورجال القيصر ، وكيف ضربوه . وقال فى نفسه : أنهم رمونى فى البئر .

ولكنه صلح خطأه بسرعة : ولماذا يلوثون البئر ، اليس عليهم أن يطهروها بعد ذلك ؟

وفتح عينه اليمنى البعيدة عن الأرض فرأى مقدمة حذاء ضخم تلتصق بأنفه تماما ، وفهم كلمات أحدهم الحانقة :

- إيه ... ماهذا الشيطان ، إنه لايزال حيا !

وسمع صوتا آخرا :

- والغجرى ... لازال يتحرك !

ولم يتركوا له فترة من الوقت يحلم فيها أن رجالا من زملائهم قد حضروا لإنقاذهم بل ارتطم مقدم الحذاء فى صوت مكتوم بوجهه ، تحت عينيه تماما .

ومرة أخرى خفض وجهه ، وخبأ رأسه أكثر فأكثر بين كتفيه .

وصرخ صوت حانق لاهث بجوار مانولاتى :

- إضرب ... إضربه على رأسه .

وابتدؤا يدقون بأحذيتهم رأس مانولاتى ، ورأى بعينه رجلا ثقيلا ضخما يقفز إلى أعلى ثم يدك بحذائه رأس مانولاتى ، ويكرر هذا عدة مرات .

وشد تيتكوف على بطنه ولكن كعب الحذاء الحديدى مزق لحم ذراعه المكسورة ، وكسر السليمة عند المعصم . وسمع بأذنه صوت العظام وهى تطقطق وتتكسر تحت خبطة الحذاء القوية .

وحاول تيتكوف أن يبل شفتيه بلسانه إلا أنه غاب عن الوعى ...

ومرة أخرى صبوا فوقه ماء باردا ، ومرة أخرى فتح عينا واحدة - فقد كانت الأخرى متورمة لاتنفتح ، ومرة أخرى رأى مقدمة الحذاء الضخم ملتصقة بأنفه ...

وقلبوه على ظهره ، وأحس بذقن ذات شعر مدبب تقترب من وجهه ، وغمغم يقول للذقن :

- ماء ... ماء

وانفجرت أصوات مختلطة تصرخ فى تنافر :

- إنه حى ...

- ياله من شيطان ...

- الآخرون ماتوا ولا يزال هو حيا .

- لعنه الله .

ورقد تيتكوف هكذا بضعة دقائق ، ورأى فوقه أجزاء من ذقون ، وأنوف حمراء متورده وغمغم مرة أخرى :

- ماء ... أريد أن أشرب أيها الاخوان .

كأن من يطلب منهم غير الذين ضربوه منذ لحظات ، وكأن مهمتهم ليست ضربه حتى الموت :

ولطمته يد قوية أطاحت بأسنانه .

وتساءل واحد فى دهشة ممزوجة بشىء من المرارة :

- ياللشيطان ... من أين له كل هذه القوة ؟

وبصق عليه .

ولم يجد شد تيتكوف على بطنه ، فقد أحسّ بالكعب الحديدى يندفع إلى أمعائه بقوة هائلة .

* * *

غسل رجال القيصر وجوههم وأيديهم ، وسعلوا بشده ، ونظفوا أنوفهم كما يفعلون كل صباح بعد القيام من النوم ، وبلل أحدهم شعره وسرحه بمشط صغير من الحديد أخرجه من جيبه ...

وتقدمت الفلاحات والأطفال بين أيديهن ينظرن !

كان اليوم قد انتصف ، وانتصبت الشمس فى منتصف السماء كوحش ضار ، تلفح الوجوه ، حين رحلت عربة يجرها جوادان بعيدا عن البئر والقرية ، وفيها الأجساد الأربعة . وبجانب العربة سارجنديان ، ومسدساهما يلمعان تحت أشعة الشمس .

وفتح تيتكوف ، وهو راقد فوق زملائه ، عينه فأعمته للتو لمعة المسدسين ...

جنود ومسدسات — لقد رآهم قطعا قبل ذلك ... أما لمعان المسدسات فقد بدا غير عادى ، فيه شىء لايمت إلى الأرض بصلة .

ودفعة واحدة سرى الألم فى جسده ، وشعر بالنار فى حلقه وكل عضو فيه .

ووعى كل شىء والخيل تقترب من قمة التل ، ومرة أخرى حاول أن يتذكر ماحدث ، حاول أن يعرف ماذا حدث ، لماذا هو هنا ؟ ماسر هذا الألم ؟

وبينما هو يتساءل سمع جنديا يقول لزميله :

- ها هو منحدر جميل ، سيطيرون فوقه مثل الغربان .

ورد الآخر :

- أجل ... هذا أنسب مكان ...

ولم يستطع تيتكوف فهم معنى ذلك ، وظل لايفهم ... وجرته أربعة أذرع قوية من العربة ، وكانت الشتائم واللعنات تهدر من حوله ، فتأوه

بصوت خفيض . ونظر بعينه الواحدة ، وأحس بالأيدى الممسكة به تلين قبضتها ، وحين ارتطم بالأرض تأوه بشدة ، وسرى الألم إلى جميع أعضائه كوخز الإبر ...

وعطست الخيول ، وهزت رؤوسها ، وحركت أرجلها فى ضجر وملل ، وتراجع الجنديان عشرين خطوة إلى الوراء فى خوف وهلع .

وأرهف تيتكوف سمعه ، وحصر كل قواه فى أذنيه علّه يفهم شيئا ، فسمع أحدهم يقول فى غضب :

ـ وأنت أيها الشيطان الدنس متى ستموت ؟

وحول تيتكوف نظره إلى المتكلم ، أوهكذا خيل له ، فرآه يسحب مسدسه ، ويصوبه نحوه ثم يطلق .

وارتجف تيتكوف ، وشعر بمسمار محمى يدق فى صدره ، واخترق صدره مسمار ملتهب آخر ... وثالث ... وكانت هذه الرصاصات من الجندى الآخر .

وفتح فمه ، فتدفقت الدماء غزيرة ، وهز رأسه مرة ... وثانية ، ثم هدأ ...

وشد الجنديان جثة سيمون المتخشبة ، ثم طوحاها عدة مرات فى الهواء . وقد أمسك واحد بقدميها ، وتشبث الآخر فى رقبتها ، ثم قذفاها من القمة ، وقذفا بعدها جثة الغجرى مانولاتى ، وقال واحد وهما يقذفانها :

ـ هناك ستنتصر ... ستحكم فى جهنم أيها الوغد .

وضحك ضحكة ساخرة وهو يسحب جثة الاسكافى ليلقى بها .

وحين جرا جثة تيتكوف إلى الحافة انتظرا قليلا ، ثم قال واحد :

- إفرض ... إفرض أن هذا الشيطان فجأة ...

فأجابه الآخر :

- أتعتقد أنه حى ؟

ومزقا قميصه ليريا مكان الرصاصتين ، ووجم الجنديان وهما يريان جسد تيتكوف وقد غطته الكدمات والسجات والجروح والرصاص يخترق صدره الأيمن .

وانفجرت أساريرهما وهزا خصلات شعرهما ، ودفعاه من الحافة ، وشاهدا جسده وهويلف ويدور ويعلق بجذور الحشائش من قدمه مرة ، ومن رأسه مرة أخرى .

وأخيرا استقرت الجثة فى القاع ... بجانب زميلاتها .

* * *

وتقدم الليل ، وانحدرت الشمس نحو المغيب ، وابتدأت الظلال والرطوبة .

وذهب ثلاثة نساء من مزرعة مجاورة إلى الوادى ليجمعن الحطب . وكان معهن حبال ومدى ...

وحين تعثرت أقدامهن بالجثث هربن فى كل اتجاه خائفات . وبدرت صرخة مكتومة من إحداهن ، ونظرت أخرى وراءها ، وأمسكت الثالثة بصديقتها . وأخيرا تحركن ناحية الجثث والواحدة منهن تدفع الأخرى أمامها .

ونظرن وهززن رؤوسهن ، ثم جففن دموعهن بالمناديل . وقالت واحدة :

- لابد أنها متعفنه .

وقالت الثانية مستنشقة الهواء :

- أظن أنها حديثة .

وأجابت الثالثة وهى تضم يديها إلى صدرها :

- لقد كنت هنا بالأمس أجمع الحطب ... ولم تكن هنا جثث ...

وأضافت الثانية :

- ياترى ... أى متوحشون فعلوا هذا ؟

والجثة ، كما هو مفهوم من إسمها ، يجب أن ترقد فى سلام وألاتتحرك . ومن المرعب أن تحاول جثة رفع رأسها مثلا ، بل هذا فى حد ذاته يخيف أشجع الناس .

وحين فتح تيتكوف عينه وحرك رأسه ، صرخت النسوة وتدافعن بعيدا وامتلأ المكان بالكعوب البيضاء وهى تجرى ، والأصابع الدقيقة وهى تتعثر فى الحشائش .

ولم يكد يمر ربع ساعه حتى عادت النسوة ، وكل واحدة تشجع الأخرى ، وسمعن همسة تقول :

- يافتيات ... شىء من الماء ... أرجوكن ...

وعلى مقربة من الوادى كان يجرى جدول صغير ، طالما شربت منه النسوة ، ولكن لم يكن لديهن أكوابا وأوعية وإنما فقط حبالا

وسكاكينا . وعدون إلى الجدول .

ولاحظن فجأة قبعة من الخوص ملطخة بالدماء ، كانت منذ ساعات على رأس سيمون وحين ألقوه طارت عن رأسه . وغسلنها قدر ، طاقتهن ، وأحضرن الماء ليتكوف ، ورمقنه وهو يتجرعه فى عطش زائد .

وشرب كل مافى القبعة ، وأجال نظره فى النسوة واحدة واحدة وهو يتنفس بصعوبة وسألت إحداهن فى همس :

ـ أيها الرجل ... من الوحوش الذين ضربوك هكذا ؟

لم يجب ليتكوف بل همس :

ـ ياعزيزاتى ... أريد أن أشرب قليلا من الماء ...

وكان الظلام قد انتشر حين حملت النساء ليتكوف وهو يتلوى ويتألم ، وكلما غاب عن وعيه توقفن فى خوف ، ونظرن إلى بعضهن البعض فى عتاب وتوبيخ ، وقالت واحدة :

ـ ألم يكن أفضل لو تركنا المسكين يموت فى سلام ... بدلا من هذا العذاب ؟

الا أنهن تابعن حمله ، وفككن الحبال المربوطة حول يديه ، ثم اتجهن به الى مستشفى المدينة .

وخلال الطريق تابعن عتابهن ، وأقسمت واحدة بأنه لن يصل المستشفى وفيه رمق من الحياة ، وسيذهب جهدهن هباء ، وسيتعبن الحصان بلا طائل .

ولم تفكر إحداهن فى بيتها ، فالرجال فى المزرعة قليلون وليس

لإحداهن رجل .

وملأ السرور قلوبهن وهن يحملنه إلى المستشفى ... فهذا أقل مايستطعن فعله ... وقلن لأنفسهن : ليموت فى المستشفى إذا كان لابد من موته . وشعرن بصواب هذه الفكرة ، فسيجد هناك العناية أو الدفن اللائقين بإنسان .

وفى المستشفى سألوهن :

- من هو ؟ من ضربه ؟

وأجبن :

- من أين لنا أن نعرف ؟ لقد وجدناه هكذا فى الوادى .

وقالوا لهن :

- ما الفائدة من إحضاره إنه سيموت فى النهاية .

وردت إحداهن :

- إذا مات سيجد من يهتم به ويضع باقة من الورد على قبره .. ولكن سنذهب الآن فعلينا أن نطعم البقر ويجب أن نكون فى المزرعة قبل الصباح .

وعادت النساء إلى المزرعة مع الفجر ...

تحس الأطباء فى ذلك الصباح أضلاع تيتكوف المهشمة بنفس الهدوء الذى هشمت به بجانب البئر فى القرية ...

* * *

مر شهر ... وكانت عطله ... والعمل قليل ... فاتجهت النساء الثلاثة

إلى المدينة يحملن باقة من الزهور البريه ليضعنها على قـــبر الرجل الذى أطفأن عطشه وحملنه من الوادى .

وحدثت أحداث كثيرة فى ذلك الشهر ، وعرف كل إنسان بقصة الجثث ولماذا وجدت فى الوادى . ووجدت مخلوقات جدد لاتؤمن بالقيصر وحكومته ...

كان ذلك اليوم يوم صيف ، وفكرت النسوة حين ابتدأن رحلتهن عند الظهر بأنهن سيعدن فى المساء . ولم يكن لديهن أى عمل فى المدينة سوى وضع باقة الزهور على قبر الرجل ، ثم العودة إلى المزرعة .

وسرجن جوادين قويين . وحين كانت أرجل الخيل تضرب الأرض ، والعربة تتمايل فى سيرها تذكرت النسوة كيف سارت عربتهن منذ شهر فى نفس الطريق وعليها الرجل .

وقالت ليوكيريا ذات العيون الذابلة وتبلغ الأربعين عاما :

ـ لا أظن أن أحدا قد حمل مشوها مثله ! لقد كان الهزكافيا للقضاء عليه !

فأجابتها إكسينا ذات الحواجب السوداء المقوسه وتصغرها سنا :

ـ لم يكن بمقدورى إلا التلهى بسيور الحصان حتى لا تقـع عيناى على وجهه المهشم .

وتذكرت ليوكنيدا ، أصغر الجميع سنا ، جميع ما حدث ، فقالت والحزن باد فى عينيها :

ـ لقد كان مضجعا ورأسه على ركبتى طيلة الرحلة ، ولم أجرأ على

التحرك حتى لا أزعجه . ومع ذلك لانعرف إسمه ، ياليتنا نعرفه !

وتابعت النساء رحلتهن على هذه الحال ، وفى أيديهن باقة الزهر ؛ وعلى الجوانب امتدت حقول الساده ، ثم حقول الفلاحين ، ورأين آثار مجموعة من الرجال كانت قد عبرت هـــذه الحقول وقصفت فى بعض الأماكن سنابل القمح .

وأرسلت الشمس أشعتها فى ود ، وتصاعدت روائح من الأرض ، وفهمت النساء معنى الروائح المتصاعدة ـ أليست الأرض كجسد المرأة ؟

وفى السماء حلق صقر ، نقطة صغيرة زرقاء ، وردد الوادى صدى أصوات طائر الوقوق ، واستقر ذباب على ظهر الخيل ، وحركت ذيلها بشدة لتطرده فلم يؤثر ، وكفت عن محاولاتها تاركة للسيور أمر طرده .

وكانت النيران قد اشتعلت فى الأسبوع السابق فى إحدى المزارع ، وشاهدتها النسوه ، ونظرن إلى المزرعة فرأين أكواخا سوداء محترقة ومخازنا للغلال تخلى عنها لونها الأبيض .

وقالت إكسينا وهى تشد اللجام :

ـ لا بد أن الماشية قد نفقت .

وقالت ليوكيريا وهى تعدل القش تحتها :

ـ لست أدرى إلى متى ستبقى مشتعلة ؟

وقطفت ليسكونيدا ورقة من باقة الزهر التى تحملها ، شعرت بأن لا لزوم لها ، ووضعتها بين شفتيها ، وقذفت بها إلى الطريق ثم قالت :

ـ مجانين ... نسوة مجنونات ... ما جدوى الذهاب ؟

وظهرت بيوت المدينة وقبابها من وراء الحقول الخضراء ، وقالت الأخريات :

- لابأس - ها نحن اقتربنا .

وقبل وصولهن إلى المستشفى مررن بالمقبرة الواقعة على يمين الطريق ، وقالت كل منهن للأخرى :

- لو نعرف إسمه ! سننزل ونسأل الحارس فيجب أن يعرف أسماء الموتى .

ووقفت الخيل ولكن لم يجدن من يسألنه .

وسارت العربة فوصلت المستشفى فى الساعة الثانية .

وعلفن الجياد وتركنها فى الخارج ، وأخذت ليكونيدا باقة الزهر معها خوفا من أن يسرقها أحد المارة .

وتقدم الثلاثى والباقة معهن إلى فناء المستشفى يسألن عن قبر الرجل الذى أحضرنه منذ شهر ، وعن إسمه .

يذكر بسطاء الناس دائما مرضهم ومرض من بقربهم خلال العطل - وليس خلال أيام العمل .

وجالت النسوة فى وسط ضوضاء فناء المستشفى والزهر فى أيديهن لايعرفن من يسألن عن ضالتهن .

وهرعن إلى رجل بدين ذا مريول أبيض وسألنه فأجاب فى حدة :

- ألا تميزن ! إننى الطباخ .

وقابلن رجلا آخر ، عارى الرأس هذه المرة ، يضع مريولا هو الآخر ، ويحمل سطلا تفوح منه رائحة كريهة ، فاستمع اليهن وقال أنه

حديث العهد فى المستشفى ، وحت الخطى مبتعداً .

والتفتن إلى امرأة تلبس حلة بيضاء وعلى ذراعها صليب أحمر ، فسألتهن :

- ما إسمه ؟

وقالت النسوة :

- ومن أين لنا أن نعرف ياعزيزتنا ؟

ونظرت المرأة إليهن فى دهشة وقالت :

- إذا لاتعرفن ، فما فائدة البحث ؟

وأسرعت مبتعدة تقرع الأرض بكعبها العالى .

وأوقفن رئيسة الممرضات العجوز يسألنها ، فلم تعرف ، وقادتهن إلى مساعد الطبيب ، رجل ذو شارب أحمر ، أجرد اللحية ، يلبس معطفا أبيض . نظر إليهن فى دهشة وقال :

- تقلن أنه توفى منذ شهر ؟ إنه من السهل قول ذلك ولكن البحث .. على كل حال هل تعرفن شيئا عن الأحوال هنا ؟ هل تعرفن عدد الموتى يوميا ؟ كلا لاتعرفن ولاتستطعن تصوره ...!

وقالت النساء فى لهفة محاولات تذكيره :

- ولكن رجلنا قتل قتلا .

ونظر اليهن مساعد الطبيب ثم قال :

- كل الرجال تقتل فى هذه الأيام ... لايوجد رجلا حى !...

ووعدهن بالبحث .

ونظرت النسوة على الخيل التى تركنها ، فوجـــدنها تأكل التبن ، وتجولن فى فناء المستشفى ، وزرن المطبخ ، وغرف الغسيل ، والمراحيض (وليكونيدا لا تزال تحمل الزهر) وسرن إلى الحديقة ليجلسن فترة من الوقت فى الرطوبة ريثما ينتهى مساعد الطبيب من بحثه .

كانت الحديقة صغيرة لها ممران صغيران . وكان يجلس فيها عدة مرضى على مقاعد صفراء يرتدون ملابسا بيضاء متشابهة . وكان أحدهم نائما على نقالة يقرأ صحيفة ـ نظرت النسوة اليه بتمعن ـ وجلس آخر فى كرسى ذى عجلات ينظر إلى أوراق الشجر ... وكانت يداه ورأســـه مربوطة برباط أبيض . وجلس اثنان آخران مع بعض أقاربهما ؛ وبجانب أحدهم جلست فتاة صغيرة تمتص بعض الحلوى .

وفى هيبة ووجل سارت النسوة جنبا إلى جنب فى إحدى الممرات يتفحصن الناس بأعينهن ، مرة المرضى ... ومرة أخرى ملابس امرأة جالسة ، ومرة ثالثة الطفلة ...

ومرت النساء أمام الرجل النائم ، وتفحصته كل على حدة ، ولاحظن أصابعه الرفيعة ـ مثل القش ـ وتعجبن كيف يستطيع إمساك الصحيفة . ثم نظرن إلى عيونه الحادة ...

ومررن أمام الرجل الذى يجلس فى الكرسى ذى العجـــلات ، وتفحصنه : كانت عيونه واسعة غائرة ، وذراعه مربوطه إلى رقبته ... ولاحظن شيئا آخر ... لاحظن أن الكرسى تحت أشـــعة الشمس ، وفكرن أنه أفضل لو كان فى الظل ! وابتعدن .

وكان من الصعب أن يبتعد الانسان فى مثل هذه الحديقة الصغيرة ،

ووصلن إلى السور الأخضر فعدن أدراجهن ، ومررن بجانب الفتاة الصغيرة ، وأمام الرجل النائم ، ثم أمام الكرسى ذى العجلات .

ورفعن المناديل عن رؤوسهن ليستبردن . وكانت ليكونيدا لاتزال تحمل الزهر ، وحين اقتربن من الكرسى ذى العجلات قالت ليكونيدا بأسف وهى تنظر إلى الزهر :

ـ لقد ذبل من الحر .

ونظر المريض ذو الرباط الأبيض حول رأسه ، ويده المعلقة إلى عنقه ، اليهن فى اهتمام وهتف :

ـ هذا أنتن ياعزيزاتى !

وتوقفت النسوة بسرعة .

وأعاد الرجل فى فرح وسرور :

ـ أجل ـ هذا أنتن !

وصاحت النسوة بصوت سمعه جميع من فى الحديقة :

ـ رجلنا ... هذا رجلنا ! بحق الله أنه رجلنا ! نعم رجلنا ... انظروا اليه وقد عاد إلى الحياة ونحن حاملات الزهور لنضعها على قبره !!

ولم يكن هـــذا منتظرا ، وكان رائعا لذيذا ، ولم تقو النساء على الوقوف ، بل ركعن بجانب الكرسى ذى العجلات يتأملن الرجل الذى لايموت ...

الكسندر كوبرين

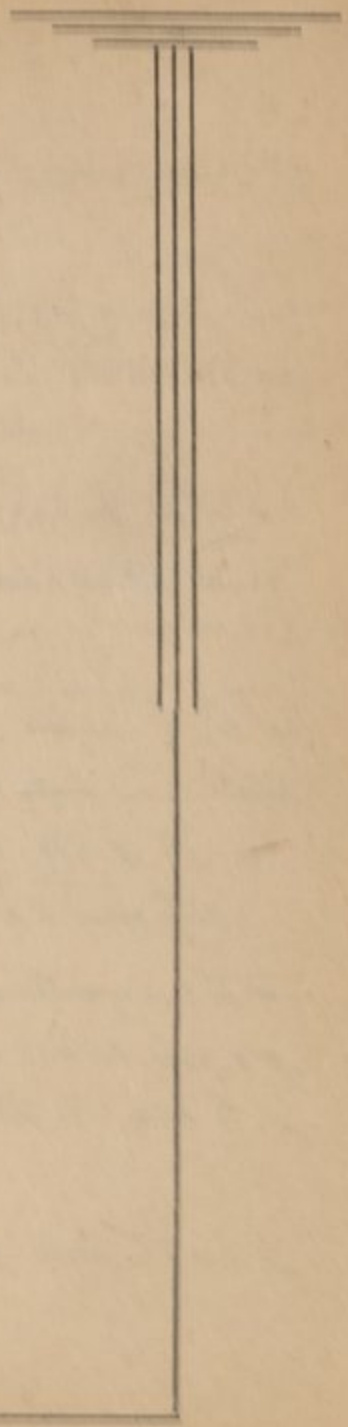

نفس أبيــة

الكسندر ايفانوفيتش كوبرين

ولد كوبرين عام ١٨٧٠ فى قرية من قرى أواسط روسيا من أن تترى وتوفى عام ١٩٣٨

والتحق فى شبابه بكلية الضباط فى موسكو وتخرج منها ثم التحق بالجيش عدة أعوام وخرج بعدها ليتقلب فى عالم الوظائف والأعمال إلى أن استقر كاتباً .

وعرف العالم كوبرين أديباً لامعاً فى عام ١٨٩٦ حين أخرج قصته « مولوخ » قصة تعالج حياة المصانع . وتتابعت قصصه بعد ذلك، الصراع ، يا ما ، الحفرة . . .

وكوبرين يعد من أساطين الأدب الروسى الحديث ، كما أنه يعد خليفة تشيخوف بلا منازع . فهو يتبع طريقة تشيخوف فى التحليل النفسى ، يصور شخصية فى بضع لمسات ولمحات ، فإذا هى كائن حى . ويصور أدق المواقف وأكثرها تعقيداً تصويراً وافياً ببضع كلمات .

فلقد اكتملت له القدرة الفنية فى تصوير الشخصيات والمواقف والبيئات . . وكل ذلك فى اقتصاد ووضوح ، والحادث الذى يوحى لكاتب ما بالصفحات الطوال والروايات الطويلة ، يضعه كوبرين فى عدة صفحات .

وصفه ليوتولستوى فقال : « كوبرين هو الشخص الوحيد من الجيل الجديد الذى يكتب فى صدق واخلاص . »

وشخصيات كوبرين يغلب عليها دائما اليأس والقنوط، وكشخصيات تشيخوف هدها البؤس، واعتصرت قلوبها أحداث الحياة، تنظر إلى الحياة بمنظار أسود تشاؤمى.

وكما هى الحال عند دستويفسكى، تثقل على شخصيات كوبرين، كما فى قصة «نفس أبيه» مشكلة الشر وترهقها، فلا تجد لها خلاصا فى المسيحية كما يشير دستويفسكى، بل فى بعض الأحيان بوضع حد لحياتها. وقد عزى أحدهم ذلك إلى تأثر كوبرين بالرومانطيقية وبكتاب الغرب أمثال كيبلينج، وجاك لندن. وقصته «نفس أبيه» ما هى إلا تجسد واضح لتأثر كوبرين بالرومانطيقيه.

غادر كوبرين روسيا قبل ثورة ١٩١٧ إلى أوروبا هربا من الرقابة القيصرية ومضايقات البوليس السياسى، وعاد إليها عام ١٩٣٦ فاستقبل استقبالا حاراً، وطبعت كتبه من جديد.

نفس أبيـــة

إن الذكريات والحوادث السحيقة التى تتصل بعهد طفولتى يخالطها كثير من الاضطراب ، كما أن للخيال فيها أثراً يفوق ما للواقع . ولكن من بين تلك الذكريات المتقطعة أستطيع بوضوح تبين صورة ذلك الشخص ياشا ورفيقيه بل وصديقيه اللذين رافقاه . سنوات حياته : ما تسكو الجواد العجوز ، وبوتن كلب المنزل المدلل .

وكانت أبرز مميزات ياشا تباطؤه المتعمد فى حديثه وأفعاله . كما كانت أفكاره تدور دائما حول شخصه وتنصب على ذاته . وقليلا ما كان يتحدث ، وإذا فعل فهو يزن كلماته التى يحاول نطقها فى روسيه سليمه ينساها إذا أثاره الانسان . أما ملابسه الداكنه وتعبيرات وجهه الحزين ، فكانت توحى بأنه خادم لبيت عريق من أسرات جيل سعيد سابق .

ومن بين كل المخلوقات التى عرفها ، لم يجد ياشا إلا واحداً يركن إليه ويجعله موضع إحترامه وحبه ، ذلك هو أبى . ولكن أخلاقه كانت موضع تقدير جميع أفراد عائلتنا .

ولا أستطيع إلى الآن أن أجد تفسيراً لذلك الكبرياء الذى كان من خصائص ياشا الغامضة . فإن معظم الخدم يظهرون حقاً على جانب كبير من الوقاحة ، وربما كان ذلك راجعاً إلى محاولتهم تقليد أسيادهم . أما نحن فتوقعنا أن معيشة أبى المتواضعة الهادئة فى قرية يهودية هو طبيبها كفيلة بإبعاد الكبرياء عن نفس ياشا . ومع أن ياشا كان متكبرا

الا أنه لم يكن على شيء من الوقاحة . ولم يلجأ الى العجرفة فى معاملته لخادمات بيتنا الفلاحات .

وكان يقضى أوقات فراغه جاثماً فى تكاسل واضح بجوار صندوقه الخشبى الذى يحوى كل ما يملك ، ولم يحاول قط أن يقرأ كتاباً لاحتقاره الشديد لكل ما يكتب ، مفضلا الاسترسال فى أفكاره الغريبة التى يقبلها ذهنه المشتت .

وكان الجواد ماتسكو قد ألقى خارج الخدمة العسكرية لعيوب كثيرة أهمها كبر سنه ، مما حال بينه وبين أداء واجبه . أما بوتن فكان مثال الحيوان الهادىء الرزين فى المنزل ، ولكنه إذا غادره تعمد ألا يسير وراء عربة والدى ، كغيره من الكلاب ، بل يشتبك مع أبناء جنسه فى معارك حامية .

أما قريتنا ، فقد كان غريباً اتصاف كل ساكن فيها بحب الظهور وبذل كل فرد جهده كى يبدو على جانب كبير من العظمة والزهو ولم يختلف ياشا عنهم فى ذلك . خاصة عندما كان يصطحبه أبى للقيام بجولة خارج المنزل ، فتراه قد وضع على رأسه قبعة لامعة وتمنطق بحزام عريض من الجلد الأصفر ، ثم أسرع إلى العربة الأثرية يعلقها لظهر ماتسكو ، ويقف فى انتظار أبى بعيداً عن المنزل ، حتى إذا رآه قادماً قرع السوط وهو يندفع بالعربة تجاه الباب الكبير ، فإذا حاذاه تظاهر بصعوبة جذب سيور الخيل ، وكأنما بالعربة ستة من

الجياد، بل كان يستعير أحيانا جواد جارنا ليفسكى ويشده فى عظمه واعتداد إلى جوار ماتسكو . ولم يكن ياشا يفعل ذلك إلا تأكيداً لأصل عائلتنا النبيل .

وكان ياشا يحمل لأبى تقديراً غير عادى ، يبديه للفلاحين واليهود اللذين كانت تجمعهم حجرة الانتظار بعيادة والدى ، حين يؤكد لكل واحد منهم أن أبى سيعرف داءه ، وسيعطيه الدواء الشافى

أما عمله فكان حريصاً عليه ، أمينا يقظا فى اداء واجبه ، يعتقد تماما بألا أحدا يستطيع المواظبة على عمله والقيام به كما يستطيع هو . وفى إحدى المرات عنفه أبى لتحطيمه آنية ثمينة . فإذا به يعود بآنيتين اشتراهما بدلها وهو يقول موضحاً :

ـــ ربما أحطم غيرها ؛ وعلى كل حال فنستطيع أن نستفيد من كلتيهما .

وتشاجر مرة مع ايفكا إحدى خادمات منزلنا ، وأدعى كل منهما تفوقه فى تنظيف حجرات المنزل وتنظيمها ؛ وفى ذلك النهار دعينا نحن الأطفال كى نقضى بينهما — ولإغاظة ياشا أصدرنا حكما فى صالح فلكا .

ولم ندر كأطفال أسرار النفس البشرية ، ولم يجل بخاطرنا فظاعة الطعنة النجلاء التى وجهناها إلى نفس ياشا الذى انطلق على أثرها خارج الحجرة صامتاً . وفى اليوم التالى علمت القرية من أقصاها إلى أقصاها أن ياشا قد ثمل ـــ ولم يكن ياشا يذوق الشراب إلا مرتين

أو ثلاثا فى العام فى أوقات حزنه العظيم أو حزن العائلة ، وحينئذ لانجد من يجمع الأخشاب أو يطعم الحصان أو يحضر لنا الماء .

وقد اختفى هذه المرة ستة أيام لم نسمع خلالها خبرا عنه ، ثم ظهر فجأة فى اليوم السابع فى حالة تدعو للرثاء . وكان يتبعه جمع من رعاع اليهود يسخرون منه . وانفلت من بينهم ليصعد إلى المنزل ، ثم عاد حاملا بين ذراعيه محتويات صندوقه الخشبى يعرضها صائحاً بأعلى صوته معلنا الأثمان التى يريدها مقابل تحفه وملابسه . وكان أبى يرقب ياشا واللصوص يغتصبون منه كل ما يملك فلا يستطيع السيطرة على أعصابه . واضطر أن يتدخل لفض ذلك الجمع من حول ياشا الذى كان يترنح من تأثير الخمر .

— سيدى ... سيدى ... أنظر مافعلوه بى .

فجاءه صوت أبى يهدر فى غضب :

— اذهب إلى الحظيرة .

وفى الحظيرة شعر ياشا بآلام التوبة العميقة المريرة ، ولكنه كان على يقين أن أبى لن يغفر له فعلته الحمقاء .

وقادنا حب الاستطلاع ، نحن الأطفال ، الى باب الحظيرة لنصغى الى ما يدور بداخلها ، فلم نسمع إلا نحيب ياشا المتواصل . ولم ينس الكلب بوتن واجبه نحو صديقه البائس ياشا ، فجلس بجواره يرسل تنهداته العميقة فتختلط بنحيب صديقه .

وفى اليوم التالى حضر ياشا إلى المنزل فى الصباح الباكر وقام بتنظيف أرضه وأثاثه كعادته، وانتظر مجىء أبى، الإنسان الوحيد الذى كان يرتعش منه كلما ذكر. ولكن والدى لم يكن ممن يخدعون فسلم ياشا أجره وأمره بمغادرة المنزل فى الحال. ولم تجد تضرعات ياشا. فقال:

— إذن، فأنت تعنى طردى ياسيدى. أليس كذلك؟

— نعم وفى الحال.

— حسنا... لن أذهب، لن تستطيعوا الحيـــاة بدونى.. سأمكث هنا دائما...!

— سأستدعى البوليس:

— البوليس! إن أهل القرية جميعا يعلمون أننى خدمتكم فى إخلاص عشرين عاما، ثم أطرد بواسطة البوليس... دعهم يأخذوننى... لن يلحق العار سواكم ياسيدى.

ولم يقض ياشا ليلته فى المطبخ كعادته، بل شارك ماتسكو اصطبله، ثم أدى عمله فى الصباح، وما أتى المساء حتى كان والدى قد صفح عنه.

وعاد ياشا يبدو أنيقا من جديد، لينال كعادته إعجاب الكثير من الفتيات — إلا أن ترفعه واحتقاره البارد للجنس اللطيف، لم يشجع إحداهن على الابتسام له.

ومع ذلك ، فأنا أذكر جيداً تلك الحادثة التى أدهشتنا جميعا . دخل ياشا المنزل فى إحدى الليالى ، وبرفقته امرأة فى أسمالها البالية ، ناهزت الخمسين من عمرها تترنح سكرى ، وتقدم نحو أبى طالبا منه أن يبارك زواجهما ، ولاحظت أبى فى تلك اللحظة يحاول إخفاء دهشته الطاغية ، ثم يصارح ياشا بعدم موافقته على زواجه بمخلوقة كهذه .

— إذن فأنت لا تسمح لنا بالزواج ياسيدى ؟

— ليس هذا فقط ، بل يقينى بأنك لن تفعل ذلك .

— إذن ... لن أفعله ياسيدى ... هل تسمعين قول السيد ؟ اذهبى فى الحال .

وأمسك المرأة من ملابسها وجرها خارج الغرفة .

وكانت هذه هى الخطوة الأولى والأخيرة التى خطاها ياشا نحو الزواج ، والتى ظلت سراً مغلقا لم نستطيع اقتحامه .

ولم نكن نتوقع وفاة ياشا التى حدثت فجأة يكتنفها كثير من الغموض .

سمعنا ذات يوم ، أن رجلا مسافرا شنق نفسه فى إحدى دورات المياة بمحطة السكة الحديد ، فطلب ياشا من والدى أن يأذن له بالذهاب لمشاهدة الجثة . وعاد بعد أربع ساعات ليجد عندنا بعض الضيوف فى غرفة المائدة ، فوقف بالباب مترددا وسألته والدتى :

— ماذا هناك ؟

فانفجر ياشا ضاحكا وهو يقول :

— كان لسانه متدليا ... بأكمله ...

وفى الثامنة مساء اليوم التالى ، ذهب ياشا إلى حجرة شقيقتى الصغيرة وقبلها قائلا :

— وداعا ياسيدتى

ولم ترفع الصغيرة وجهها عن لعبها وهى تجيب:

— وداعا ، ياشا ...

— ولم تمض نصف ساعة حتى كانت الخادمة ايفا تهرول نحو مكتب أبى شاحبة مضطربة

— آه ... ياسيدى ... هناك ... فى المخزن ... شنق نفسه ... ياشا

ثم وقعت مغشيا عليها .

وعندما استجوب المحقق الطاهية ، ذكرت غرابة تصرفات ياشا يوم وفاته ، فقد وقف أمام المرآة ، واعتصر عنقه بيديه حتى أزرق وجهه وجحظت عيناه وتدلى لسانه من فمه . كان يود أن يرى كيف سيبدو .

وذيل المحقق الأوراق بجملته التقليدية . « انتحار فى حالة عقلية مضطربة . »

وفى اليوم التالى لم نعثر لبوتن على أثر . فقد انطلق الكلب

الوفى إلى قبر صديقه الوحيد ، ينعاه بنباحه المتواصل ثم اختفى ولم نعد نرى منه شيئا .

وإذ أستعيد الآن ذكرياتى العديدة ، فتحضرنى من بينها صورة ياشا ، لا أملك إلا أن أرى فيها نفسا غريبة غامضة ، جمعت بين الإخلاص والنقاء ، وتناقض الهزء والعظمة . حقا لقد كانت نفسا سلافية أصيلة رفيعة .

كتب للمعرب

الفجر لنا .. .. نفذ

بالاشتراك

مع

راغب بركات

الشريد ...

دار النشر المصرية

ارکادی أفریشنکو

عید المیلاد

أركادى تيموثيتش أفريشنكو

أبتدأ أفريشنكو عمله بكتابة قصص قصيرة بسيطة تشبه إلى حد كبير قصص تشيخوف وكوبرين ... إلا أنه كان يختلف عن كليهما بتتبعه الأسلوب الساخر ... الفكاهى .

وقد أخرج بين ١٩٠٦ و١٩١٧ مجلة أسبوعية أدبية أسماها « ساتيريكون » وأخرج فى هذه المرحلة عدة قصص ومسرحيات قوبلت بنجاح عظيم على مسارح بطرسبرج .

وما أن اندلعت نيران الثورة الروسية عام ١٩١٧ حتى هاجر أفريشنكو إلى أوروبا حيث أصدر كتاب : « اثنى عشر سكين فى ظهر الثورة . . » ، وتوفى فى أوروبا حيث لم يسر فى جنازته سوى عشرة أشخاص ...

وأفريشنكو شخصية عجيبة فى تاريخ الأدب الروسى ... فمع سلاسة أسلوبه وسهولته لم يصل إلى المكان التى وصل إليها جوركى وتزنسكى وغيرهما . إلا أنه يعد من اللذين حطموا بقايا الرجعية الفكرية ... وحملوا لواء الأدب الجديد !

وقصة « عيد الميلاد » قصة طالما تعرف بأنها تمثل أسلوب أفريشنكو الساخر الفكاهى أصدق تصوير ...

عيد الميلاد !

كانت السماء قاتمة مكفهرة ... الثلج يتساقط فى كتل كبيرة فيغطى الأرض بثوب ناصع البياض ... والناس فى حشد عظيم يملؤن الطرقات وقد علت وجوههم أمارات المرح والسرور ... والكل منهمك فى شراء الحاجيات الضرورية لعيد الميلاد المجيد .

ووقف هياكن الموظف الحوقل ، خلف زجاج نافذته المغطى بالثلج ينظر فى كآبة وحزن إلى الشارع الملىء بحشد مختلف من الناس وطفرت من عينيه اللطيفتين البراقتين دمعة تدحرجت على خده فتنهد فى حرقة وهمس لنفسه قائلا :

— رباه ! ماأروع هذه الليلة وأعظمها ، ومع ذلك فكثيرون هم الذين لا يملكون فى هذه الليلة المجيدة سقفاً يأوون اليه ، ولا زاوية يلجأون اليها ، حتى ولا حلما مبهما يرون فيه شجرة العيد مزينة بالدمى واللعب ! آه يا إلهى ! ليتنى أفعل شيئا مهما يكون ضئيلا ، ليتنى أحمل الدفء إلى بائس واحد على أقل تقدير ، ليتنى أقدم إلى أربعة أو خمسة من الأطفال المحرومين شجرة ميلاد صغيرة تدخل إلى قلوبهم السعادة . إلهى ، أن عالمك هذا باردشق ، تعيس ، فلماذا يا إلهى هذه التعاسة ؟ ولماذا هذا الشقاء ؟ ..

ووضع هياكن قبعته على رأســـه ، وارتدى معطفه الفرو وغادر المنزل ورأسه يكاد ينفجر بتلك الأفكار الحزينة التى تملأ

نفسه بالحنين .. الحنين إلى السعادة والسرور . وراح يستعرض الجماهير النابضة بالحياة وهى تمر أمامه وبجانبه كسيل عارم لا يتوقف . ووقف هياكن أخيرا عند زاوية أحد الشوارع ، وراح يتفرس فى الناس ويفكر .

يالهؤلاء القوم ما أكثر لا مبالاتهم ببعضهم البعض ! ... ليس بينهم من يهتم بغيره ولو مقدار ذرة ... يالأنانيتهم ما أفظعها بينهم مئات الجائعين .. وألوف المحتاجين إلى قليل من الدفء والحنان .. ومع ذلك فليس هناك من يهتم أو يكترث ..

ووقف كلب بالقرب منه ، ودس أنفه بين قدمى هياكن ، وراح ينفض عن جسـده الثلج وهو ينبح فى لطف مستغيثاً من البرد ، فانحنى هياكن عليه وقد تملك التأثر منه مقداراً عظيما وقال :

— أيها الحيوان المسكين ! أيها التائه فى هذه الشوارع ولا من يهتم بك أو يعتنى بأمرك ، تعال معى فأقدم لك الطعام وأمددك على سجادة قديمة .

وصاح صوت حانق :

— مالك وكلبى بحق الشيطان ؟

وتقدم ضابط من باب إحدى المتاجر ، وقد احمر وجهه من الغيظ والغضب وراح يعنف الموظف المرتبك ، فقال هياكن فى ارتباك وحيرة :

ـ كنت أود صحب هذا الكلب المسكين إلى منزلى فأدفأه وأطعمه .

فزمجر الضابط فى شدة .

ـ حقاً ! إنك تريد أن تصحب إلى بيتك كلباً طويل الشعر ، يساوى مائة روبلا . لذلك فأنت الذى تستحق الاصطحاب . وليس إلى المنزل ، ولكن إلى أقرب مركز للبوليس .

ونادى الضابط الكلب وسار مبتعداً .

وراحت جموع الناس اللامبالين تمر من جديد أمام هياكن لتختفى بعيدا بعيدا ولتحل محلها جموع أخرى .

وحث هياكن الخطى ، ولف فروته حول جسده المرتعش وراح يفكر :

يا لهذه الريح المعربدة ، كأن آلافاً من أبالسة جهنم الغاضبة قد عَن لها أن تحيى حفلة معربدة شريرة ؛ كان الله فى عون كل مسافر شاء سوء طالعه أن يقع تحت سطوة هذا الطقس المجنون . إن الريح ستتسلل من خلال ثيابه فتجمد أطرافه . وعواء الذئاب البعيدة التى تبحث عن فريسة تلتهمها سيتردد فى أذنيه وكأنه صوت أجراس مأتمه .

وتصور هياكن ذلك المسافر المسكين وهو يناضل جاهدا حتى لا يغوص فى الثلج وقال فى نفسه :

سوف يغوص المسكين فى الثلج حتى ركبتيه فى كل خطوة

يخطوها . ولماذا كل هذا ؟ لأن المسكين لا يملك من المال ما يمكنه من استئجار عربة تقله ، أو حصان هزيل يستطيع أن يوصله إلى غايته . لقد حكم القدر على هذا المسكين أن يحث الخطى منكمشا فى ثيابه حتى تدفأه يا قته الممزقة . .

وتدحرجت دمعه على خد هياكن فمسحها بيده اليمنى وانحدر يسير فى منعطف جانبي مقفر . ومر بجانبه رجل زرى المظهر يحاول جهده أن يلف نفسه جيدا فى معطفه . ولم يستطيع هياكن تحمل هذا المشهد الذى حز فى نفسه ، فأسرع يلحق بعابر الطريق ، وحين اقترب منه دس فى يده ثلاث روبلات دون أن ينبس ببنت شفه ، وقال فى نفسه : « ولكن لا بد أن أقول له شيئاً . . »

وتوقف الغريب عن المسير ، ورفع وجهه مذهولا من وراء يا قته ، وحملق طويلا فى هياكن قبل أن يقول :

— ما معنى هذا ؟

— لا بأس أيها الأخ ، فأنا أرى أن أمامك طريقاً طويلا لا بد أن تجتازه ، وليس بإمكانك استئجار جواد يوصلك إلى غايتك ـ فأرجوك ألا تشكرنى .. لقد فعلت ما بالإمكان . إن الحقول أيها الأخ فأمرها أشبه بآلاف من الأبالسه . .

وزمجر الغريب غاضباً :

— كيف تجرؤ على هذا ؟ ألا تعرف من أنا أيها الصعلوك ؟ لا بد أن تقضى ليلتك فى السجن . .

وفتح معطفه فظهر صدره وقد حلى بعدد كبير من الأوسمة والنجوم التى يخطف بريقها الأبصار . فتمتم هياكن متلعثما :

— انى ... انى آسف ... جدا

فصاح الغريب فى حنق :

— يالك من مخمور أجوف .:. هيا ابتعد من هنا

وحث هياكن الخطى مبتعدا ...

وازدادت الريح وحشيـة ، وراح ديسمبر يعلن للملأ عن ذاته بأشد ماعرف عنه من الزمهرير والصقيع...وبرز هياكن مرة ثانية فى الشارع المزدحم . وفكر فى كآبة وحزن :

يالـكثرة هؤلاء الاطفال الذين يدعوهم الشاعر بأزهار هذا الوجود . إنهم يجوبون الطرقات جياعا. يشخصون الى المأكولات الشهية المعروضة فى واجبات المحال التجارية الضخمة ... ولكن وا أسفاه ! فهذه الأشياء ليست لهؤلاء اليتامى فى أفراح الحياة.

ورأى طفلة صغيرة تقف أمام حانوت للحلويات عظيم المظهر فخم الأثاث ، تتفرس فى شدة فيما تراه أمامها من أصناف الحلوى الشهية ، فخيل إليه أن شيئاً ما قد وقف فى حلقة، واقترب من الطفلة وغمغم وهو يمسك بيدها :

— أيتها المسكينة الشريدة البائسة . . تعالى معى وسوف أطعمك وادفئك ولكن البنت المذعورة ، راحت تصيح :

— أماه ... النجدة ... أماه

فانطلقت نحو الفتاة سيدة كانت تتفحص القبعات المعروضة فى واجهة إحدى المحلات المجاورة وهى تصيح فى هياكن

— اترك الفتاة أيها العجوز الدنىء ... اتركها وإلا ضربتك بمظلتى ... كيف تجرؤ على خطفها .

وسمع أحد الواقفين صراخا فقال :

— حقاً . . . إن شجاعة هؤلاء الخطافين تفوق كل وصف . . إنهم يخطفون الضحية فى واضحة النهار وفى الشوارع المزدحمة .

فقال هياكن مدافعاً عن نفسه :

— أقسم لكم أنه لم يخطر على بالى أن أخطفها . . بل كنت أريد أن آويها فى بيتى من الثلج والبرد .

فصاحت الأم :

— يا لك من وغد دنىء ! لا تستمعى إليه يا نادين . . أسرعى إلى هنا . .

وتساقط الثلج كثيراً وصرصرت الريح أكثر فأكثر . . وانعطف هياكن مرة أخرى إلى زقاق جانبى مقفر . . وحث الخطى على طول الرصيف وهو يفكر :

لا بد أن أبعث السرور فى قلب إنسان مسكين . . فأخفف من ألمه وبؤسه . . ولكن الفقر الأبى . . يفضل الاختفاء على الظهور فيجب على أن أكون لبقا ، مجربا ، حتى أتعرف عليه ولا آذى شعور إنسان !

ومر رجل طويل يرتدى معطفا بنيا ، وقد تمنطق بحبل رفيع ، يضع على رأسه قبعة أكل الدهر عليها وشرب . . وتفحص الرجل وجه هياكن . . وقال هياكن فى نفسه : أخيرا لقد وجدت ضالتى . ثم قال بصوت رقيق حنون .

— إن الجو ردىء يا صاحبى . أليس كذلك ؟

فقال الغريب موافقا :

— أجل . . قبحه الله ما أبرده

نظر إليه هياكن ثانية ثم قال بلباقة :

— الظاهر أنك قد نسيت أن ترتدى ثياباً ثقيلة تقيك من البرد ألا تعتقد أننى إذا أقرضتك عشر روبلات سيكون باستطاعتك أن تتفادى هذا النسيان ؟

قال الغريب بلهجة غير مألوفة لهياكن :

— لا أعتقد أن هذا سيفيد . . من المستحسن أن تخلع معطفك وتعطينى إياه .

فغر هياكن فمه من الدهشة وأخيراً استطاع أن يقول :

— . . ماذا . . ماذا سيحدث لى ؟

— ستأخذ معطفى القديم هذا . . أين روبلاتك العشرة . . لا بل اعطنى المحفظة والساعة . . ماذا تقول ؟ إنها ليست ثمينة ؟ أعطينيها ، فبهلوان مثلك لا يحتاج الى ساعة

وزمجرت الطبيعة أكثر فأكثر . . وتساقط الثلج فى عنف .

وحث هياكن خطاه ، ملتحفاً بالمعطف البالى متمنطقاً بحبل رفيع . وقد برزت أصابعه من مقدمه حذائه . وهو يرتعش من البرد وتقدم منه صبى صغير يلبس ملابساً نسائية ، وقد تكور فى سيره من شدة البرد وقال :

— إمنحنى صدقة محبة للمسيح .. من أجل العيد ياعماه !

فصرخ هياكن مزمجرا :

— خذ .. خذ .. من أجل العيد أيها الشؤم ..

وطبع على وجنة الطفل قبلة عنيفة ..

لم يستطع هياكن أن يقدم شيئاً يدخل السرور إلى قلب كائن مسكين .. كل ماستطاع أن يفعله هو أن يظهر حنانا ثائراً غاضبا أنعش الصبى الذى كاد يموت بردا ... فأسرى الدماء حارة فى عروقه

ن . شبانوف

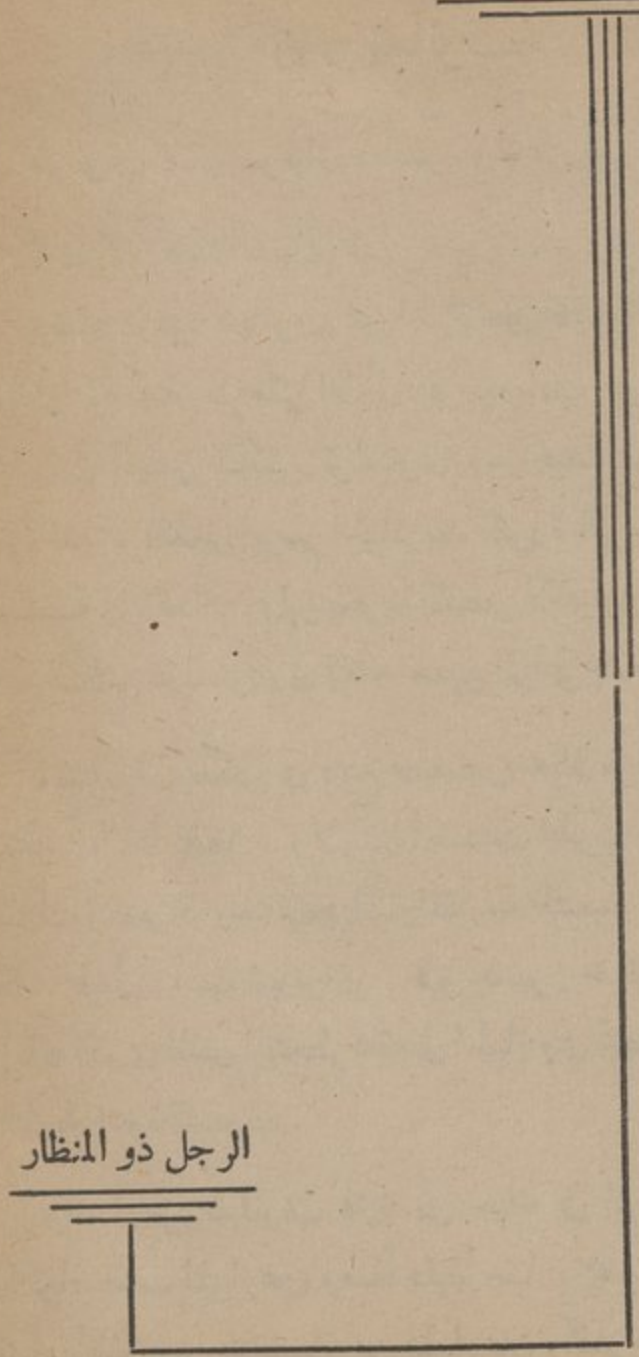

الرجل ذو المنظار

ن . شبانوف

شبانوف كاتب سوفياتى معاصر . ولد من أب فلاح ، وعاش وترعرع فى القرى .

وتفتحت عينا شبانوف على الحياة حين كانت الثورة الروسية الاشتراكية تجتاز مرحلتها الأولى . فرضع أدب جوركى وآمن به ، ونهل من قصص الكسى تولستوى وسرجيف تزنسكى إلى أن يبس قلمه ، فانفجر يرسم الحياة بعد الثورة التى لم تسيطر عليها الكنيسة والاقطاع ، ولم يسخرها القيصر لأغراضه ، فإذا به تلميذ يتتبع الكسى تولستوى فى إيمانه العميق الواعى بشعبه ووطنه .

وشبانوف يعكس فى جميع قصص حياة مواطنيه السوفيت انعكاساً واعياً دقيقا ، ولا سيما أحداث الحرب العالمية الثانية . فمعارك لينجراد وستالينجراد والمقاومة الشعبية البطولية تحتل مكاناً رفيعاً فى أدب شبانوف . فهو يصور حياة الشعب الروسى وإيمانه القوى الذى لم يتحطم بحقه فى الحياة وفى تحطيم قوى الفاشية والنازية عدوة الشعوب .

وقد أمضى شبانوف فترة من حياته فى المزارع الجماعية ، لذا تراه يصف المزارعين وصفاً دقيقاً حيا ، يخيل إليك وأنت تقرأه بأنك تلمس شخصياته من المزارعين والفلاحين بيديك .

وقد اعترف الشعب الروسى بعظمة أدب شبانوف ، وقدر قصصه البطولية من المقاومة الشعبية إبان الحرب العالمية الثانية . فمنحه عدة جوائز .

وشبانوف يعد الآن من أئمة الأدب السوفياتى المعاصر .

الرجل ذو المنظار

ستفهم لماذا انتظرنا عودته بصبر نافذ ، وقلق شديد حين أخبرك بمهمته . لقد أمر بروخور بالهبوط بطائرته فى خطوط الأعداء وإحضار قائد المقاومة وما تجمع لديه من معلومات عن الأعداء .

ومضى الوقت المحدد لعودة بروخور منذ زمن ولكنه لم يعد ، وأعيننا المتعلقة بالسماء بحثاً عن طائرته كانت ترتد خائبة . فلا أثر يوحى بقدومه . أجل يجب أن نعترف بالفشل ؛ ولكن من الحرام ألا يعود رجل مثل بروخور ، طيار ماهر ، خطأه الوحيد إقدامه الزائد المتناهى ، ولكن ألا ينبض فى صدره قلب روسى حار . .

وقبل مطلع الفجر رأينا على حين غفلة ومن غير سابق انتظار طائرة برخور وهى تحلق فوق أرض المطار . ولاحظت توهبوطه من الطائرة انحراف مزاجه . فقص على الكولونيل بصوت جاف مراحل تنفيذ مهمته ، ومن غير أن يجيب على أسئلة رفاقه اتجه إلى كوخه ، فتبعته صامتاً .

ولم يكلمنى ، بل رمى بنفسه على الفراش من غير أن يخلع معطفه الجلدى أو يتفوه بحرف واحد . وأنت ألواح الخشب تحت ثقل جسمه مما جعلنى أظن بأن الرحلة قد أنهكت قواه ، فقررت

أن أتركه وشأنه . وحين فتحت باب الكوخ باغياً الخروج وقع شعاع النور على وجهه فرأيت عينيه مفتوحتين ، معلقتين بنقطة ما ونظراته من النوع الذى لم أكن قد رأيته بعد ، نظرات وجلة حائرة فيها تساؤل حزين لا يجد له جواب . عدت إليه وجلست بجانبه على الفراش ، وإليك ما علمت منه :

جلس بروخور مع الفجر فى مخبئه كما أمر وانتظر قدوم الراكب الذى سيرافقه فى عودته . وانظر بروخور من غير جدوى ولم يعلم سبباً لتأخر قائد المقاومة . وجعل يفكر هل هو أخطأ فى تقديره وهبط فى مكان غير المكان المتفق عليه ، أم أن حادثاً حدث فأخر المقاوم عن الحضور .

ومضت ساعة . وتبعتها أخرى ، وتقدم النهار ، وملأت الشمس الكون بأشعتها ، ولم يظهر للرجل أثراً . وقال بروخور فى نفسه : « لو أتى الرجل الآن فلن أستطيع الطيران ، فالشمس تملأ الكون والأعداء محيطون بى . »

ونهض من مكانه فخبأ طائرته بالأغصان قدر طاقته ثم عاد ثانية إلى مكان مراقبته بين الأعشاب . وأخيراً حضر قائد المقاومة . رجل قصير القامة ، ضامر الجسم ، يناهز الحلقة الرابعة من عمره ، له لحية مشعثة مدورة كالتى تنمو عادة من غير قصد ، يلتحف

بمعطف جلدى قديم ، أكل عليه الدهر وشرب ، يتدلى على أرنبة أنفه منظار ثبت إلى أذنه بخيط رفيع .

ولم يكن فى شكله ما يوحى بأنه رجل عسكرى أو ما يدل على علاقته بقصص المقاومة البطولية التى اشتهر بها . لقد اضطر إلى التأخر عن الموعد بسبب الحاجة الماسة المفاجأة للتخلص من هيئة ضباط ألمان حلت تلك الليلة بالقرية فى طريقها إلى الميدان . ونجحت العملية ، ووجد قائد المقاومة فى حوزته كل ما يحتاج إليه من معلومات فى الواقع محفظة مليئة بالخرائط والأسرار .

أخرج الرجل ذو المنظار من جيبه محفظته ، محفظة عادية من تلك التى يستعملها العمال السوفيت ، وفتحها فظهرت لأعين بروخور مجموعة من الخرائط الألمانية ، فسأله بروخور :

— هل بإمكانهم اللحاق بك ـ إلى هنا ؟

— كلا .

وعاود بروخور سؤاله :

— هل بإمكانهم منعنا من الطيران ؟

فأجاب المقاوم بإيمان :

— كلا

ثم تابع قوله بعد تفكير عميق :

— لا أحد يدرى بمكانى سوى امرأتى وابنى الصغير .

نظر بروخور الى الرجل بدهشة ثم قال :

— هل تعنى أنهم معك فى المقاومة ؟

فهز الرجل رأسه فى صمت ثم ابتسم وقال :

— إنها أمهر مساعدى وأنشطهم .

ولم يجد بروخور ما يقوله سوى « أجل ! » ثم تابع بعد صمت قصير :

— سنبقى هنا إلى أن يحل الغروب ثم نحلق عائدين ... ولكن لم تقل لى ما هو عملك ؟

فأجاب المقاوم باقتضاب :

— مزارع

ثم سأل :

— هل سنطير عندالغروب ؟

— أجل . كل ما نحتاج إليه شىء يسير من النور لنحلق ، وأما الطريق فإنى أعرفها أتم المعرفة ، ولن نحتاج الى النور فى طيرا ننا .

قال المزارع :

— هكذا ! !

وصمت طويلا قبل أن يقول وقدعلت شفتيه الابتسامة الودية التى لم تفارقهما أبداً !

— سيقفون هناك ، فى ذلك الطريق ليرونا نحلق .

ونظر بعينيه الزرقاء الصافية الضعيفة النظر إلى الطريق المؤدى إلى مدخل القرية .

ورقد بروخور وزميله المزارع فى صمت إلى أن مالت الشمس إلى الغروب فاستوت والأفق ، وامتلأت السماء بالشفق . فقال بروخور .

ـ لقد حان الوقت .

ولم يتحرك المزارع بل قال بصوت آمر :

ـ أرقد فى مكانك .

وتابع بنظراته الطريق حيث ظهر فى الأفق شخصان ، امرأة وطفل ، يسيران نحو الغابة ، فعرف بروخور فيهما زوجة رفيقة المزارع وطفله .

ومرة أخرى تحرك بروخور وقال :

ـ هيا بنا يا صاحبى لقد حان الوقت .

فأجابه المزارع بذات الصوت الآمر وقـــد امتزج بشىء من الغضب :

ـ لا تتحرك وارقد فى مكانك .

فرقد بروفور بعد تردد قصير وتابع الطريق بنظراته .

وفجأة توقف الدم فى عروقه . لقد أتت دراجات نارية من ناحية القرية تنهب الأرض نهباً تريد اللحاق بالشخصين الذين كانا على بعد عدة أمتار من العشب الذى اختبأ فيه بروفور وزميله .

وأصبح من العبث الطيران ، بل أصبح يعد جنونا ، فضرب بروخور الأرض بقبضة يده فى حنق وغيظ .

ولحق الألمان بالمرأة والطفل وهما على بعد عدة أمتار من مخبأ بروخور وزميله اللذين تمكنا مشاهدة كل حركة وسماع كل كلمة تفوه بها . وفحص بروخور المرأة بعينيه فرآها قصيرة ضامرة كزوجها ، غطت أكتافها التى تشبه إلى حد كبير ضلعى الزاوية بمنديل ممزق بينما بقى رأسها بدون غطاء . أما الطفل الذى وقف بجانب أمه يتفحص الأرض بعينيه . فقـــد علت وجهه الصفره وبان عليه الضعف والهزال .

سأل أحد الألمان المرأة :

— أنت معلمة أليس كذلك ؟

فأجابت فى هدوء :

— أجل .

— لقد حدث هجوم فى مدرستك على الهيئة الألمانية .

قالت المرأة بصوت هادىء عميق :

— إنى لا أعيش فى المدرسة .

ففقد الألمانى أعصابه وصرخ فى وجهها قائلا :

— أجيبى على سؤالى . ألم يقتل الضباط فى مدرستك ؟

— أجل !

— لا بدأنك تعرفين من الذى ارتكب هذه الجريمة .

فلم تجب المرأة ، بل نظرت إلى أحد الجوانب فى صمت كأنها تبحث عن الجواب هناك . وازداد حنق الألمانى فتقدم منها خطوة وصرخ « أجيبى » وأجفلت المرأة كأنها تراة وتسمعه للمرة الأولى ثم أجابت بهدوء :

— لا أستطيع .

— إنك تستطيعين ، وعلى كل حال نحن نعرف كل شىء . .

فنظرت إليه فى شك ثم قالت .

— إنك لا تعرف شيئا .

وهزت رأسها نافية تلك الفكرة ثم استطردت :

— لا شىء ....

ووضع الألمانى يده فى جيب سرواله الخلفى وأخرج محفظة ضخمة فتحها تحت أعين المرأة وقال :

— زوجك !

ولم تتفوه المرأة بحرف بل ابتعدت قليلا ، وفهم الرجلان فى مخبئهما أن الألمانى عرض عليها صورة زوجها .

وفى حركة سريعة قفز الطفل يريد اختطاف صورة أبيه من يد الألمان ، فضربه الأخير على يده بشدة جعلته يصرخ من شدة الألم . وهنا التفت الألمانى إلى المرأه وأشار إلى الطفل قائلا :

— حسنا ، سيتكلم الطفل .

وهزه هزة عنيفة قائلا :

— سر أمامنا .

وفقدت المرأة سيطرتها على أعصابها ، وغلب الخوف على صوتها لأول مرة وهى تقول :

— لاداعى للطفل ، دعوه وشأنه فسأتكلم أنا .

وتحرك بروخور كمن لسعته أفعى ، ولولا يد المزارع التى قبضت على ذراعه فى شدة لقفز نحو الطريق المؤدى إلى القرية .

— إذن تكلمى واحفظى حياتك وحياة الطفل .

وأشار الألمانى إلى الطفل .

— ولكنى ... لا أستطيع

— كفى تمثيلا أيتها المرأة ، ليس لدينا من الوقت مانضيعه فى سخافاتك !

قالت المرأة بصوت خفيض سمعه الرجلان المختبئان بصعوبة:

— ولكنى لا أستطيع بحضوره .

وأشارت إلى الطفل ثم أردفت قائلة :

— إنه سيخبر أباه

فقال الألمانى بإيمان غريب :

— إنه لن يخبر أحداً

وبحركة آلية تحركت يده فأخرجت من جيبه مسدساً ، فزع له الطفل وحاول التعلق بأمه هاتفاً . « أماه »

ولكن لم يتحرك أو يتفوه بكلمة أخرى ، فقد استقرت ثلاثة

رصاصات فى أحضانه أسكتته إلى الأبد ، وخر إلى الأرض ملطخاً بدمائه .

وشعر بروخور بيد زميله المزارع تتقلص على زراعه ، واهتز جسمه فى عنف ، ووقفت المرأة صامتة كتمثال من حجر ، مرفوعة الرأس ، وقد تعلقت عيناها الزائغة بالشمس الحمراء الغاربة . وهنا صاح الألمانى :

— والآن تكلمى .

وطوحت المرأة بيدها ذات اليمين وذات الشمال كمن أنزل لتوه عن الصليب ثم قالت بصوت مرتجف مبحوح :

— انكم وحوش ... وحوش ضارية ... كنتم ستسيمونه أشنع أنواع العذاب حتى يتكلم ، ولكن هذا أفضل فقد مات ميتة سهلة بسيطة

وطأطأت رأسها فى يأس وتدلت يداها إلى جوانبها كجناحى طائر جريح ثم قادها الألمانى فى الطريق المؤدى الى القرية .... !

وحين ابتعدت أصوات الدراجات الناريه ، لاحظ بروخور أنه لا يقوى على حراك يده تحت قبضة زميله المزارع الذى راح ينظر إلى الأفق الأحمر بعيونه الزرقاء الصافية ، حيث ظهرت منازل القرية بسقوفها الصغيرة البيضاء .

ومع الفجر ، حلقت الطائرة تقل بروخور وزميله .

وقال لى بروخور :

— لو لم يكن الرجل الصغير ذو المنظار بجانبى لما استطعت

تنفيذ أوامر القيادة .

ثم أغمض عيناه واستطرد :

— والآن دعنى أنام .

وخرجت من الكوخ ، ولكن بروخور لم ينم بل ظلت عيناه الواسعة معلقة بنقطة ما . تنظر فى حيرة ووجل . .

استدراك

وقعت بعض الأخطاء المطبعية الخارجة عن إرادتنا يرجى القارىء تصحيحها :

صفحة ١٠ سطر ٢١ : الخطأ

«وتسربت فى هذه الآونة روح التشاؤم التقليدية فى الأدب الروسى»

الصواب :

«وتسربت فى هذه الآونة روح التشاؤم والانحلال طاردة روح التفاؤل التقليدية فى الأدب الروسى .»

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٢	١٥	ألا	إلا
٢٦	١	أن	إن
٣٥	٧	تعليق	تعلق
٤٢	٢٢	فبامكانى	فبإمكانى
٥٢	٥	دفع	سيدفع
٥٥	٦	رفيقاً	رقيقاً
٦٠	١٣	يحفظك	يحفظك

B13208524
I15055474

الفهرس

صفحة

دراسات فى الأدب الروسى .. .. ٥ — ١٥
س . ت . سيمنوف ١٧
الشريد .. .. ١٨ — ٢٧
فيودور دستويفسكى ٥٥
لص شريف .. .. ٣٠ — ٥٣
أنطون تشيجوف ٥٥
فانكا .. .. ٥٧ — ٦٣
مكسيم جوركى ٦٥
مولد إنسان ٦٦
سرجيف تزنسكى. .. ..
رجل لايموت . .. .
الكسندر كوبرين . .. .
نفس أبية . .. .
أركادى أفريشنكو ١٢٢
عيد الميلاد ١٢٣
ن. شيانوف .. .. ١٣٢ — ١٣٣
الرجل ذو المنظار . .. . ١٣٣ — ١٤٤

DATE DUE

- 3 JAN 1990

JAN